منتصر

(رواية)

اســــم العمــــــل	منتصر
النـــــــــــــوع	رواية
تــــــــــــأليف	محمد زهران
تصـــميم الغـــلاف	عبدالحكيم صالح
إخـــراج داخلـــي	عبدالقادر فايز الهندي
الطباعــــــــــــة	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــــــر	الدار للنشر والتوزيع
المـــدير العـــام	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــــون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـد الإلكترونـي	eddar_press@yahoo.com
فـــيس بــــوك	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيــــداع	٢٠١٥/١٣٨٨٤
التـــرقيم الـــدولي	I.S.B.N:-978-977-702-085-5

منتصر

رواية

محمد زهران

٢٠١٥
الدار للنشر والتوزيع

" وبعيد عن العين، لكن في الصورة أوضح ناس" .

إهداء إلى:

ملح أرض المحروسة، أصل البرواز، المحكوم

عليهم دومًا بالبقاء

خارج الإطار.

ــ يولد جميع الناس أحرارًا متساوين فى الكرامة والحقــوق، وقــد وُهبوا عقلًا وضميرًا وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء.

ــ لا يُعرَّض أى إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.

ــ لكل شخص الحق فى حرية الرأى والتعبير ويشمل هــذا الحــق حرية اعتناق الآراء دون أى تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

ــ لكل شخص الحق فى مستوى من المعيشة كافٍ للمحافظة علــى الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلــك التغذيــة والملــبس والمسكن والعناية الطبية، وكذلك الخدمة الاجتماعية اللازمة، ولــه الحق فى تأمين معيشته فى حالات البطالــة والمــرض والعجــز والترمل والشيخوخة، وغير ذلك من فقدان وسائل العــيش نتيجــة لظروف خارجة عن إرادته.

" من مواد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان".

" نتجه إلى المستقبل ونحن نشعر أننا سننتصر ـ بعون الله ـ انتصارات متتالية.. انتصارات متتابعة؛ من أجل تثبيت مبادئ العزة؛ ومن أجل تثبيت مبادئ الحرية؛ ومن أجل تثبيت مبادئ الكرامة".

جمال عبد الناصر

٢٦ ـ ٧ ـ ١٩٥٦

عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية

عيش.. حرية .. كرامة إنسانية

"أيقونة ثورة ٢٥ يناير".

بينى وبينك سور ورا سور
وأنا لا مارد ولا عصفور.

"نجيب سرور"

ـــ اسمى؟.. منتصر عبد الفتاح مصباح الزينى.

ـــ .....

ـــ داخل السنة دي في الخمسة وخمسين.

ـــ ......

ـــ عزبة فكيهة في الطالبية.

ـــ ......

ـــ إيوه شغال في المحطة.. من إمتى؟ مش فاكر، بس أهو من زمان.

ـــ ......

ـــ أكل عيشي يا باشا هو اللي بيودينى هناك كل يوم.

ـــ ......

الله ينور عليك يا باشا.. زى ما سعادتك بتقول كده، اليوم دكهه إيوه كان اشتباه وطلعت براءة والحمد لله، لما عرفوا زملاتك إن أنى كنت هناك عشان الجيلاتى وساعتها طلَّعوا علينا مطلوع إننا بتوع "ثورة الآيس كريم". إيوه والله دا حتى الجرايد تانى يوم كتبتها كده.. بتوع ثورة الآيس كريم أهم.. ليك حق تضحك يا باشا ماحنا إيامها كنا ملطشة خلق الله، كل من هب ودب كان بيتنأور علينا.. المشرف تانى يوم قراهالى وهو بيتمألت.. ما أصل إتصورنا وفضايح والجرايد نزلت

علينا هات يا تصوير.. يادوب يا باشا يوميها لسه ها لحس أول لحسة وحصل اللى حصل.... حاضر حاضــر هخلينــى فــى موضوعنا.. اتفضل يا باشا.

ــ ....

ــ طب واقعد في البيت ليه؟.. مش جايز تفتح في أيتها يــوم، دوام الحال م المحال يا باشا، وبعدين لا مؤاخذة يعنــى قعــدة البيت دي للنسوان.

ــ ......

ــ محطة تانية؟ وأنى أعرف منين.. المشــرف بتــاعى فــي المحطة دي والمحطة قفلت، وساعة الهوجة مــين كــان دارى بمين؟ قعدت ويا الخلايق اللى اتبدرت فى الميدان. قلت أقعــد قريب منيها أستناها ما هو أكيد هييجى يوم وتفتح، وبعدين مــا كل الناس سابت أشغالها وقاعدة فى الميدان لحــد مــا ييجــى الفرج، هو أنى كنت لوحدى، ما هى كل الناس دى أكيد مــش صيع ولا عواطلية، فقلت أكيد الحكومة هتدينا كلنا مسامحة لحد لما يهدى الحال.

ــ ....

ــ نت؟! إيوه إيوه فهمت.. كمبيوتر يعنــى، ولا قصــدك الشنطة اللى فى إيدين الشباب دى وبيقولوا عليها لاف تــوب؟

شفته في إيدين شباب ياما في الميدان.. منهم الباشمهندس مينا.. كان دايمًا رايح جاى بيه. دى دنيا تانية. كان بيورينى عليه صور وبيحكى لى حكايات ياما.

شرد وتذكر جاية مينا عليه يكاد ينكفئ على سلالم مدخل المحطة، فردد فى سره بحسرة وبعين عنيدة تقاوم سقوط الدمعة العزيزة: "الله يرحمك يا بنى ويجعل مثواك الجنة مع كل إخواتك المسلمين". أفاق على نغزة عنيفة فى كتفه تستحثه على الرد على سؤال المحقق:

ــ لامؤاخذه سرحت شوية يا باشا، ممكن تعيد لى السؤال تانى؟

ــ ....

ــ أعرفه قبل كده منين يا باشا.. أنى راجل على باب الله وهو باشمهندس، ثم إنه نصراني وأنى مسلم.. بس الشهادة لله كان جدع ابن حلال.. ربك والحق أنى أول ما شفت الصليب مدقوق على إيده كشيت.. بس أما تعرفه، راجل صاحبه بصحيح وابن بلد.. هيه.. تعرفه إزاى بقى؟ كان شاب زى الورد، راح فى غمضة عين وكأنه ما كانش.

ــ ....

ــ ماشى يا باشا.. هخلينى فى الموضوع.. الجواب علـــى قـــد السؤال.. يسمع من بقك ربنا يا باشا.. بس إحنا نفـــك الخـــط الأول.

ــ.........

ــ نهار إسود.. جواسيس؟.. لأ.. مشفتش.

ــ ....

ــ مش فاهمها دي يا باشا، وهو إحنا لينا شكل لوحدينا؟.. اسم الله على مقامك دي العيلـــة الواحـــدة بتلاقـــي فيهـــا الإســـود والأبيض.. يعنى عندك أختي الكبيرة "إنصاف" تشوفها تقولش بنت خواجات، وأنى لونى زى ما سعادتك شايف كده، وهنروح بعيد ليه ما سعادتك النبي حارسك أهو شبه الخواجات، مع إنك أهو قاعد هنا عشان تحمينا م الجواسيس والخواجات.

ــ ....

ــ هو صحيح كان فيه شوية عيال رابطين شعرهم كـــده ديـــل حصان زى البنات، اللى بيقولوا عليهم دول عيـــال المناطيـــل الساقطة.. بس دول مصريين، وغلاوتك مصريين مأصـــلين، خدت وإديت معاهم.. إيهيه.. المصري يتعرف من وسط ألـــف حتى لو كان رابط شعره ديل حصان وبيرطن إنجليزى.. لمـــا تعاشرهم تلاقى قلوبهم زى البفتة البيضة، وفاهمين كل حاجـــة

اسم النبى حارسهم، عيال متنورين ومتعلمين تعليم جامد أوى، إشى جامعة أمريكانية وأبصر إيه تانى وبيرطنوا بكل اللغات.

ـ ......

ـ يا ألطاف الله.. دا أنى أهو.. دي ساعة ما كنت شايل الباشمهندس مينا عشان أوصل بيه للمستشفى الميداني.. راح في غمضة عين يا ولداه.. ربنا يصبَّر أمه الست تريزا.. ودي ساعة اليوم الإسود الأولانى الله لا يعيده.. يووه يووه يووه.. دى ساعة النار ما وهوجت حوالينا من كل حتة.. إيه ده ومين دول؟ شوف شوف يا باشا.. يا سبحان الله.. ماشى يا باشا ما أنى مركز قوى مع الصور أهو.. أهو شفت يا باشا؟ أنى أهو قاعد جنب المحطة لا لى دعوة لا بده ولا بده.. صدق اللى قال يا باشا إنكو تعرفوا دبة النملة، أنى قلت فى وسط الهوجة دى كليتها ما حدش هييجى فى باله يصور زى يوم الجيلاتى، قصدى الآيس كريم.. عارف سعادتك لولا الصورة اللى لقطتنى وأنى بلحس البسكوتة ساعة ما حصل الانفجار كنت رحت فى شربة مية وقالوا عليَّه إنى الإرهابى اللى رميت القنبلة.

ـ ....

صدقنى يا باشا والله كل اللى سعادتك وريتهم لى ماعرف منهم حد غير الباشمهندس مينا الله يرحمه، وأنى لو هاعرف هانكر ليه، عارف يا باشا إن معاكم ما بيفيدش الإنكار.

ـ ....

والله صدفة يا باشا، صحيت بعد الليلة الغبرا إياها على إيد بتهزنى وممدودة لى بسندوتش، ربك والحق جسمى قشعر ساعة ما شفت دقة الصليب، بس الجوع كافر، وسبحان الله بعدها أما عاشرته فى الكام يوم اللى كانوا فاضلين له فى دنيته، كان وكأننا نعرف بعض من زمن.. أى واللهِ كان جوهرة، ربنا يصبَّر قلب أمه على فراقه.

....

ـ دولارات؟.. إيوه إيوه، سمعتها حفيظة مراتى قالت لى جت في التلفزيون، ساعة ما جابوا البت اللي قالوا عليها جاسوسة دي، لكن الشهادة لله أنى ما شفتش وحياتك ولا جنيهات، دا حتى الشهر كان قرب يخلص وما لحقناش نقبض وسايب البيت على فيض الكريم.. بس كنت مطمن، حاكم حفيظة مراتى دى ما يتخافش عليها أبدًا، دايمًا تدبق وتجيب للبيت خزين.. حاضر يا باشا سماح المرة دى، تف على دقنى لو خرجت عن الموضوع تانى.

ـــ ....

ـــ إيوه أمال.. ناس كانت بتفوت علينا توزع أكل على ما قسم، ناس كبرات شفت منهم ناس ياما من اللى بييجوا فى التلفزيون، بس جبنة بيضا وحلاوة طحينية وأوقات كشري.. الباشمهندس مينا كان يوماتى يجيب سندوتشات فول ياما، وفي يوم جـــابلي طبيخ بيتي عملاه الست والدته، لحمة وخضـــار ورز، ربنـــا يصبرها دى مريضة ووحدانية يا ولداه.. يا ســبحان الله أنـــى الأول قلت زى سعادتك كده، وهو الجرمأ الكبير دا كليته هياكل منين؟ بس الناس كانت بتتصرف، اللى بييجى من بيته بيعمـــل حسابه فى أكل على أده واتنين تلاتة معاه، والشباب اللى بيبات بيتمشوا تلاتة أربعة لحد باب اللوق يجيبوا كشـــرى يـــا فـــول وطعمية من المطاعم اللى فاتحة هناك، واللقمة الهنيـــة بتكفـــى مية، ما هو ربك بيدبر التدابير.. الله يرحمك يابا.. أصل الكلمة دى كانت دايمًا على لسانه.. حاضر خرست أهو.

ـــ .....

ـــ من باب الله.. ولاد الحلال كتير.

ـــ ......

ـــ يعنى أروَّح؟ براءة زى يوم الجيلاتى؟ ربنا يجبر بخـــاطرك يا باشا، لأ يا باشا لا تالتة ولا تابتة، اتعلمت الأدب.. حاضر..

لو شفت خلقتى تانى يبقى أنى اللى أستحق إعدام يا باشا، ومن هنا للبيت طوالى لا ميدان ولا لومان.

— ...

حاضر .. حاضر هافز أقوم أهو.. بس وحياة الغاليين عند سعادتك توصيهم يدوني النضارة بتاعتى عشان أشوف الطريق، هي صحيح مكسورة بس حمارتك العرجة، وحلنا بقى على ما أروح التأمين وتطلع عينى لحد ما يطلعولى واحدة جديدة.. لأ يا باشا.. حاضر.. هاغور حالًا أهو.

صحف القاهرة صباح الجمعة ١١ فبراير ٢٠١١ :

الأهرام:

ـــ مبارك يفوض سليمان اختصاصات رئيس الجمهورية.

ـــ الرئيس يخاطب شباب التحرير:

ـــ دماء الشهداء والجرحى لن تضيع هدرًا، ومطالبكم عادلة ومشروعة.

ـــ الأخطاء واردة فى أى نظام سياسى.. والمهم الاعتراف بها.

الأخبار:

ـــ الجيش ينحاز للشعب.

ـــ مبارك يفوض صلاحياته لنائب الرئيس.

ـــ عمر سليمان: ألتزم بالحفاظ على ثورة الشباب، وتحقيق الانتقال السلمى للسلطة.

ـــ النائب العام يكشف فضائح نهب مصر.

الجمهورية:

ـــ مبارك يفوض سليمان اختصاصاته وفقًا للدستور.

ـ الرئيس: سيثبت المصريون أن أحدًا لايفرض علينا قرارًا أو رأيًا.

ـ لا أجد حرجًا فى الاستماع لشباب البلاد، لكنى لا أستجيب لإملاءات خارجية.

<u>الشروق:</u>

ـ مبارك يرفض التنحى ويفوض سلطاته لسليمان، والتحرير يرفض.

ـ غضب عارم من الخطاب، والآلاف يحاصرون مبنى التلفزيون.

تعديل خمس مواد دستورية لتسهيل الترشح للانتخابات الرئاسية وحذف مادة لإلغاء الطوارئ.

ـ مبارك: أفنيت عمرى فى خدمة وطنى ويحز فى نفسى ما ألاقيه من بعض أبناء وطنى.

<u>المصرى اليوم:</u>

ـ الجيش لـ " المتظاهرين": ستتم الاستجابة لجميع مطالبكم.. ورئيس الوزراء: مبارك قد يتنحى.

ـ "الجنايات" توافق على تجميد أرصدة " عز" و" العادلى" و" المغربى" و " جرانة".

ارفع راسك فوق إنت مصرى

مساء الجمعة ١١ فبراير ٢٠١١

من طريق صلاح سالم دخلوا به شارعًا جانبيًّا ضيقًا علـــى اليمين، مغلقًا بالحواجز والأسلاك الشائكة، جنود الحراسة فتحوا لهم الحاجز على الفور بعد إشارة من الجالس على الكرســـي الأمـــامي لأحد الواقفين، أتبعها بإخراج كارنيه من جيـــب الجاكيـــت الجلـــد الأسود.. منتصر يرى الصورة من خـــلال زجـــاج الميكروبـــاص مدغشسة؛ فنضارته المشروخة ليست معـــه. تتـــراءى لـــه وســـط الصورة الضبابية أشباح تتحرك في طـــابور، وتصـــدر صـــيحات منتظمة مع دبات عنيفة على الأرض. منتصر ينظر بتمعن فاتحًـــا عينيه على اتساعهما ليعوض غياب النضارة، ويمسح الزجاج بكـــم البلوفر، فتتضح الصورة تدريجيًّا، خاصة مع اقتراب الميكروباص من يمين الطريق بمحاذاة صف من الدبابات والعربات المصـــفحة وكأن سائق الميكروباص يبحث عن ركنة. منتصر يحـــدث نفســـه بصوت خفيض ولكنْ مسموع ومتسائلًا، ربما تطوع مـــن يجلـــس أمامه أو خلفه بتوضيح الصورة: " الباشا قال لى: براءة، يعنى أنى مروح مش كده؟".. لم يجد لسؤاله ردًّا ممن معه بالسيارة، ولم تبدر

من أى منهم أى بادرة توحى بأنه تكلم أصلًا، فينحنى بجسده إلـــى الأمام، ويوجه السؤال مباشرة للجالس أمامـــه: "هـــو إحنـــا فـــين دلوقتى؟".. الجالس أمامه يحدق فى الطريـــق، وينتصـــب بجســـده كتمثال، دون إبداء أى رد فعل يوحى حتى بسماعه لسؤال منتصر، يرفع منتصر صوته تدريجيًّا بحذر وتردد، وهو يحرك رأسه إلـــى الخلف ثم إلى الأمام بحركة عصبية مشدودة، وبنبرة صوت عصبية يحاول كتمها، فتخرج الكلمات متلعثمة، وما من مجيب: "الشارع ده كده شكله تبع الجيش.. إيه الظباط والعساكر دى كليتها؟ ولا صف الدبابات وعربيات الجيش المرصوصة من أول الشارع لآخره؟ يا ألطاف الله، دا غير الظباط والعساكر، الشارع ما فيهش صريخ ابن يومين، هو فيه إيه؟"، ثم التفت برأسه نحو الجالس فى الخلف ورفع صوته قليلًا ولكن بمزيد من الحذر بتغطية جانبى وجهه بكفيه حتى تلامسا أعلى جبهته وهو يسند كوعه الأيمن إلـــى حافـــة كرســـيه والكوع الثانى يستند إلى نهاية عظام قفصه الصدرى، وكأنـــه فـــى ماتش ملاكمة يحمى وجهه من ضربة مفاجئة، وعينه تتحرك يمينًا ويسارًا، تترقب أى رد فعل مفاجئ، فينكمش داخل نفسه أكثر: "إنتو موديينى على فين بالظبط؟"، وكأنه يوجه حديثه لتماثيل جامدة، لـــم يتلقَ ردًّا على تساؤلاته. قبل نهاية الشارع المقطوع بمائتى متـــر، انقطع صف الـــدبابات والعربـــات المصـــفحة، فـــانحرف ســـائق

الميكروباص بأقصى سرعة وبحركة استعراضية لإثبات المهـــارة، بمحاذاة الرصيف ومنتصر ومن يجلس أمامه ومن خلفه يتشـــبثون بالكراسى، ثم توقف السائق فجأة بضربة فرامل عنيفة، ارتطم على أثرها منتصر في الكرسي الأمامي، وفى لحظة خاطفة انقض عليه الجالسان أمامه وخلفه؛ أحدهما من الأكتاف والآخر من القـــدمين، ونزل السائق سريعًا بإشارة من الجالس في الأمـــام؛ لفـــتح البـــاب وألقوا به على الرصيف وكأنه كيس زبالة، ورموا خلفـــه الكـــيس البلاستيكي الأسود الذي كان يحوى عدة الشاى التـــى كانـــت قـــد جهزتها له حفيظة يوم ذهب للاطمئنان عليها. ارتطم الكيس بوجهه واستقر على حجره، بدأ منتصر يقِّلب في الكيس سريعًا، لـــم يجـــد عدة الشاى، فحمد ربنا وإلا كانت السبرتاية عورته ساعة مـــارموا الكيس فى وشه، وحمد ربنـــا أن النضـــارة بـــداخل الكـــيس مـــع اليونيفورم الاحتياطى؛ حتى يرى الطريق بوضوح.

اجتازوا الحاجز الحديـــدي والعســـاكر والأســـلاك الشـــائكة وانطلقت السيارة بسرعة البرق: "الحمد لله ما فيهاش غير هو بـــس شرخ الإزازة الشمال".. دبت فيه الروح بمجرد ما ألقوا بـــه علـــى الرصيف.. وشه اللى كان ورمان بعد لكمات اليوم الأول عقابًا لـــه على رده على المحقق لما جاب سيرة الست والدتـــه الله يرحمهـــا،

وقال له منتصر: " يعنى ترضى أجيب سـيرة السـت والـدتك؟"، بيحسس عليه دلوقتى، الورم ـ يا سبحان الله ـ وكأنه اختفى.

اقترب منتصر من الحواجز والأسلاك الشـائكة، العسـكري شاور له بقرف إنه يعدى بعد ما فتش الشنطة البلاستيك، مـا هـو طبعًا بقى له أد إيه ما استحماش ولا غيرش هدومه من يوم ما راح لحفيظة تانى مرة وخلته قلع اليونيفورم المتسخ ويلـبس البنطلـون الجينز الدايب من على الرجلين، واللي كانت اشترته من التوحيـد والنور من كذا سنة مع القميص الكاروهات بمناسـبة أول أجـرة تكسبها من شغل البلوفرات على إيديها في البيت، والبلـوفر اللـي عملته على إيديها في ست شهور بخيط من حر مالها غير الخـيط اللي بتاخده من الحاجة عواطف جارتهم وتسلمه لها شـغل وتاخـد المصنعية، ولأنه قال لها: جايز الشغل يفتح في أي يـوم، جابـت شنطة سودا أكبر، غير الشنطة اللي حطت له فيها السبرتاية والبراد القديم وقرطاسين الشاي والسكر والكوبايتين الصاج له ولأى حـد يكون جاره عشان ما يبصلوش فى الكوباية، فقال فى سـره: " دى من نصيب الباشمهندس مينا"، حطت شنطة عدة الشاى فى الشنطة الكبيرة ودفست وسطيها اليونيفورم الاحتياطى وإزازة ميـة مـن الفوارغ اللى كان بيلمها لها من المحطة عشان تحوش فيها الميـة،

من يوميها لحد ما خرجوه النهاردة، والهدمة ما اتشالتش من علـــى جتته، رغم إنه كان نايم واكل شارب ع الأرض اللى كانت منشعة بمية المجارى.

في ميدان العباسية، شاف الوشوش غير الوشـــوش.. طبـــل وزمر وصريخ وهتافات وصواريخ وعلـــب بيرســـول وأنابيـــب بوتاجاز بتبخ نار في الهوا.. العلم بيتطوح فى الهوا فى إيدين الكبير قبل الصغير.. أعلام على كل المقاســـات، قمـــاش وورق، واللـــى مطبوع على الحيطان، واللى مطبوع ع الهدوم، وحتى مرسوم على وشوش العيال وخدود البنات الموردة بالفرحة.. كل البلكونات على الجانبين منورة والناس عمَّالة تعلق أحبال نور ملونة على واجهات البيوت والمحال وكأنها دخلة رمضان، والدنيا كأنها نهار.. العيـــال الصغيرة فاطة بنص جسمها برا العربيات اللى خارج منهـــا بعلـــو الصوت أغانى بتغنى لمصر، تتداخل كلماتها فلا يتبقى من صداها إلا كلمة مصر، والعيال بتطوح العلم بتحيى الخلايق اللي مبـــدورة على الصفين وحتى وسط العربيات.. قال لنفســـه وســـط ذهولـــه بالمشهد: "الظاهر عملوها ولاد الإيه وقدروا يمشوه، والله عفـــارم عليهم".

" افرح افرح يا شهيد.. النهاردة يوم العيد".

رأى بعض الشباب والفتيات ينتظمون فى مجموعة تسير فى طابور يخترقون الحشود فى اتجاه شارع رمسيس، وهم يرددون الهتاف: " افرح افرح يا شهيد.. النهاردة يوم العيد"، يتقدمهم شاب يحمل بوسترًا كبيرًا مفرودًا على برواز خشبى بذراع طويلة، يمسك بها الشاب ويلوح بالبرواز لأعلى ويميله فى كل الاتجاهات ليسمح للحشود برؤية ما يحمله البوستر من تجميعة صور لبعض شهداء الثورة، يقترب منهم منتصر، يتأمل فى بوستر الصور جيدًا، لم يجد وسط تجميعة الصور لا مينا ولا أحمد، لكن وجد فى المنتصف صورة لفتاة سمراء ذات شعر هايش، من المؤكد أنها الفتاة نفسها ذات الرأس المتفرتكة والوجه الأسمر ذى الملامح المنمنمة، هما العينان نفساهما وإن كانتا هنا فرحتين مقبلتين على الحياة، عكس النظرة الأخيرة التى ترسخت فى ذهنه فيما بعد على الرغم من نظرته العابرة لها واجتيازه لها؛ فى محاولة لإنقاذ جسد ممدد بجوارها لشاب كانت فى انتفاضة جسده بقايا حياة أجدى بإنقاذها، صرخة فزع مرعبة هى آخر ما عبرت به العينان عن وعيهما قبل الغياب.

يسترجع جاية مينا وأحمد عليه، هو تحديـــدًا لا يســـترجع، فالمشهد لم يغب عن باله منذ خطفوه مــن علـــى ســـلالم محطـــة المترو.. اتفق الاثنان على أن يهرولا باتجاهه فى ترنح، وعيونهم تستنجد به، ونظرة غامضة ارتسمت على وجه الاثنين، مزيج مــن الذهول والفزع والأمل فى النجاة، كانوا يستنجدون به، ولم يستطع أن يفعل شيئًا.. يشعر ببداية تسرب الدمعة التى يخشى أن تنـــزل، فالرجل لا يبكى مهما كانت الشدة. سحب النضارة من على عينيه، ثم سحب الياقة وجزءًا من القميص بعصبية من تحت كم البلـــوفر السبعة، تناه حوالين صباع الإبهام، وبالجزء الداخلى من القمـــيص مسح الدمعة قبل ما حد يشوفه بيعيط، ويردد لنفسه: "الله يرحمك يا مينا.. الله يرحمك يا أحمد". شباب راكبة موتوسيكلات بتعمل نِمر، كل واحد فيهم رافع العجلة القدمانية في الهوا وبيتحنجــل بالعجلـــة الورانية وبيترقصوا في دورانات والناس بتوسع لهم سكة، وشباب تانية عاملين حلقة كبيرة فى نص الشارع، وقفت العربيـــات اللـــى عمَّالة تعمل كلاكس بيب بيب، الولاد فاردين فى وسط الحلقة علمًا كبيرًا وعمَّالين ينفضوا فيه ويرفعوه لفوق بين إيديهم وبيقولوا وهما بيلفوا دورانات: " الجيش والشعب أسقطوا النظام".. قـــال لنفســـه: يبقى حصل، بس برضه مش هيصدق إلا لما يسمع بودنه إن حسنى مبارك مشى. طل بعينيه على العماير لقى عيال وستات وعواجيز

بيشوحوا بالأعلام من البلكونات والشبابيك.. شافها راكبة على شنطة عربية بتطوح العلم يمين وشمال بفرحة طفولية.. أى والله هى الخالق الناطق، الشعر الأسود الهايش نفسه، والوش الأسمر ذو الملامح المنمنمة، والعينان، العينان السوداوان الواسعتان، لكن العينين هنا مليانة فرحة، عينين بتضحك، هما العينان نفساهما الفرحتان للبنت اللى فى وسط البرواز.. على الرغم من ضبابية المشهد من كثافة دخان الغاز، رأى العينين السوداوين شديدتى الاتساع، ونظرة الفزع التى كانت آخر ما عبرت به العينان عن وجودهما الدنيوى قبل الرحيل، وشظايا قطع المخ المتناثرة حول العينين؛ عينيه الكليلتين، وعلى الرغم من كثافة الدخان كانتا زى عيني الصقر، وهما تحدقان فى المشهد مدعومتين بضوء الشمس الشاحب ساعة الغروب، وفى لحظة خاطفة أضاء كشاف سيارة شرطة وهى تهرب وتدهس من فى طريقها، الوجه لثوانٍ خاطفة كانت كفيلة بأن يحفظ منتصر تفصيلات المشهد عن ظهر قلب. حول قطع المخ المتناثرة تطايرت أجزاء من عظمة الجمجمة مع قطع من فروة الرأس بشعرها الأسود الهايش.. هل يمكن أن تكون هذه هى شقيقتها؟ عاود النظر إلى السيدات المتدليات أعلى البلكونات وهن مندمجات فى إطلاق الزغاريط والتلويح بالأعلام وإلقاء الشيكولاتة والملبس على الجموع التى بالشارع، هل يمكن أن

تكون أمها واحدة منهن؟ هل تشعر أمهــا اليــوم بالفرحــة كبقيــة البشر؟.. الناس بتاخد بعضها بالأحضان، وكل اللي في إيده حاجــة بيعزم بقلب جامد على جاره.. الشهادة لله الجماعــة مــا كــانوش حارمينه من حاجة، كانوا بيدخلوله كل يوم تــلات وجبــات، فــي الفطار والغدا والعشا وفى كل وجبة يقولوله: " إحنا بقى ولّا كنتاكى يا مولانا؟".. كان بيسمع صوت صريخ مكتوم وصويت من بنات ما يعرفش جاى منين، الظاهر كان عشان يخوفوه، هو شاف برضــه شوية حركات كده على أد سنه، هما قالو له: "إحنا بس مــراعيين إنك راجل كبير ومش حِمل خبطة".. حمد ربنا ع الكام وخمســين سنة اللي نجوه م البهدلة.. كان يدوب لسه هيمد إيده ع الفطار قبل ما يسحبوه للتحقيق، الفطار نفسه اللي كانت بترميهوله حفيظــة ع الطبلية في طلعة كل صبح.. الرغيف المقدد ولحسة الفول الإســود المحصرم والمسوس، نِفسه كانت مسدودة من طولة الحبسة والقهرة ومش عارف هيخرج إمتى؟ بس من قرصة الجوع مد إيده وهيقول: بسم الله، لقى اللى داخل عليه وساحبه من قفاه زى البهيمة، ومــن ساعتها لحد ما خرجوه بعد رطرطة ساعات مع المحقق اللى قعــد يعيد ويزيد فى الأسئلة نفسها، وهو على لحم بطنه. من فرحة الناس حس إنه نِفسه مفتوحة فما كسفش أي إيد إتمدت له بحاجة.. أكــل بسكوت وكحك وتمر وملبس وشوكولاتة وشرب عصير وكــاكولا

ومية معدنية وحتى الشاي، ناس معاها ترامس وبتصب للى حواليهم في كوبايات بلاستيك، شرب تلات كوبايات شاي، اللى كان محروم منه طول أيام الحجز.. ستات بتزغرط ونازلة الشـــارع بصـــوانٍ عليها كوبايات شربات.. كل ده كان بيتحدف عليه من غيـــر مـــا يطلب ولا اللي بيعزم بيستناه يرفض.

يا ألطاف الله، أخيرًا شاف الوشوش مزأططة م الفرحـــة.. الصوت من حواليه بيرن فى ودانه، برغم دوشة أصوات الأغـــانى اللى خارجة من العربيات والبيوت، كل البشر دي اتفقت على هتاف واحد غطى على كل الأغانى، واصله من الطرقـــات والعربيـــات والموتوسيكلات، وحاسس حتى إنه خارج من فوق من البلكونـــات مع الزغاريط: "ارفع راسك فوق إنت مصري". افتكر أبـــوه وهـــو بيقلد صوت الزعيم بفخامة تليق بسيرته وبيعيد عليهم جملة الزعيم اللى قالهاله يوم ما عينيه جت فى عينين الزعيم فى صوان الباشـــا الكبير أبو الحمايل:" ارفع رأسك يـــا أخـــى؛ فقـــد مضـــى عهـــد الاستعباد"، أى والله صدق الزعيم، استعباد.. الواد المشـــرف أبـــو شخة، كان بيعامله كإنه العبد اللى اشترهوله أبوه: " روح اشـــترى لى علبة سجاير مارلبورو أحمر.. روح هـــاتلى سندوتشـــين مـــن فلفلة.. روح إملا لى قزازة المية دى بس مية ساقعة متلجة.. شيل السجادة دى نضفها.. خد الجزمة دى اطلع ع الميدان لمعها".. ارفع

راسك فوق إنت مصرى.. افتكر مينا تانى وهو قاعد بيقرا له كلام صعب من على اللاب توب، بيتكلم عن عظمة وتاريخ مصر، مـــا فهمش منه غير قولة مينا: " حيث الكل فى واحد". فرت الدمعة من عينه وهو شايف نفسه حتة من أم الدنيا بعد ما كان حاسس من يوم ما نزلها إنه كلب جربان الكل بيخاف يتوسخ لو قرب منه. ســحب الياقة والجزء من القميص اللى باين من سبعة البلوفر تانى، مســح الدمعة قبل ما حد يشوفه بيعيط.. راجل عجوز بعكاز، جلد علـــى عضم لكن بكرش كبير منفوخ مية، ووش أصفر بلــون الليمونـــة، وجلابية بيضا نضيفة لكن دايبة من كتر الغسيل، تحتيهــا بلــوفر منحول من ع الرقبة، ودقن بيضا أى والله شبه أبوه الخالق الناطق، خده بالحضن وقعد يطبطب عليه ويعيط.. كان قاصد يخــبط فــي الناس وهو ماشى عشان يتأكد إنه صاحي.. بيقول ويــاهم الكــلام نفسه وبيرفع صوته قوى ويضم قبضة إيديه ويخــبطهم بــبعض.. العربيات بترد على بعض بكلاكسات "بيب.. بيب" كأنه ماتش كورة أو فرح: "يبقى مشى، وأيمانات الله كده مشى"، وحتى يتأكد من أنه ما بيحلمش سأل الناس اللي حواليه: " هو حسنى مبارك مشى يــا جماعة؟"، وكأنهم يخاطبون معتوهًا أو شخصًا مش من البلــد دي، رد أكتر من واحد فى نَفَس واحد وبصــوت مرتفــع أقــرب إلــى الصراخ: "اتنحى يا عم الشيخ"، يضيف آخر بصوت جهورى نفرت

معه عروق رقبته: "الجبان مش بنفسه، عمر سليمان اللـــي طلـــع وقالها، وبسلامته سى عمر كان متأثر قوى، كان ناقص يعـــيط".. يتدخل آخر دون استئذان، يرفع صوته عاليًا ليتغلب على كل هـــذه الضوضاء: " المهم إنه غار في ستين داهية.. إيه يابا إنـــت مـــش عايش في البلد ولا إيه؟.. يسترجع جاية مينا عليه متهللًـــا، يتربـــع بجواره، يخرج من جيب الحقيبة الصغير النوتة التى لا تفارقه ويبدأ يقرأ عليه حصيلة جولته اليومية بين الميادين وما جمعه من جديـــد الهتافات: " اصحوا يا خلق وهزوا الكون.. مصر بلدنا مش هتهون/ يا مبارك مش حنسيبك.. ملياراتنا لسة فى جيبك/ مش هنخاف من أبوك يا جمال.. صوتنا العالى يهد جبال/ يا مبارك يـــا فرعـــون.. إنت فى كل كتاب ملعون". مينا يعيد ترديد كل هتاف وهـــو ينقلـــه على اللاب وكأنه يحرض منتصر على حفظها: " شـــفت يـــا عـــم منتصر فطرة المصرى وعبقريته، ما ينضحكش عليه، فاهم الفولة وبيصبر لآخر مدى، بيدى الحاكم فرصة واتنين وتلاتة، وبعد كـــده آه من غضبته، أهى الهتافات دى مألفها ناس بسيطة بتطلع مـــنهم الحاجات دى كده فى لحظة عفوية، هو دا بقى يا عم منتصر عمليًّا المعنى الحقيقى لكلمة حضارة سبع تلاف سنة.. تعـــرف يـــا عـــم منتصر إيه اللى خلى مصر تعيش كل الآلاف دى من الســـنين، إن عند الشعور بالخطر، المصرى الفرد بيدوب فى الجماعة.. شـــوف

جدنا المصرى القديم عبر عن ده إزاى". يفتح مينا ملف تحميلاتـــه من الكتب على اللاب، ويفتح "عودة الروح" لتوفيق الحكيم ويقـــرأ مستهلها المأخوذ من أنشودة كتاب الموتى أو أنشودة الخروج فـــى النهار: " عندما يصير الوقت إلى خلود/ سوف نراك من جديـــد/ لأنك صائر إلى هناك/ حيث الكل فى واحد".. مينا يرفع عينيه عن اللاب وينظر لمنتصر، وهو يفتح ذراعه عـــن آخرهـــا، وإصـــبع السبابة تشير فى حركة قوس نصف دائريـــة، تســـتعرض جمـــوع الميدان: "الكل فى واحد، دى مصر اللى احنا شايفينها فى الميـــدان دلوقتى". منتصر يتطلع لمينا مبهورًا بعلمه وثقافته: "نفسى أتعلـــم أعرف أقرا وأكتب الكلام ده يا باشمهندس". قبل أن تنساب الدمعـــة من عينه يفيق منتصر على يد تهزه بعنف وحماسة: "بلد إيـــه؟ دي الدنيا يا با كلها واقفة على رِجل واحـــدة، النهـــاردة إحنـــا عملنـــا معجزة"، يدخل آخر على الخط، محافظًـــا علـــى نبـــرة الصـــوت الصارخة: "دى مصر يا جدعان، لازم الدنيا تقـــف علـــى رِجـــل علشانها، دى السنيورة بتقول: أنا أهو يا جدعان".. يحيطهم الصوت الجهورى الجماعى مترددًا من كل الجهات فيشاركون فيه لا إراديًّا: " ارفع راسك فوق إنت مصرى".. تتكون حلقة حول منتصر تحمل تنويعات الجموع ما بين شيوخ وشباب.. عجائز وفتيـــات وحتـــى

أطفال، والكل يصرخ في محاولة للتغلب على الأصوات الأخـــرى وفرض رؤيته:

ــ طبعًا وهى مصر شوية، دي أم الدنيا يا جدعان.

ــ شفتش بلد اسمه جه كده صراحة فى القرآن إلا مصر؟

ــ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

ــ والإنجيل كمان.

ــ مبارك شعبى مصر.

ــ ما بلاش أم سيرة مبارك دى.

تخرج الضحكات من الحلقة مدوية، يتجاوب معها حتى من هم على أطرافها ولم يسمعوا القفشة؛ فاليوم يوم ضحك وفرحة.

ــ دي دعوة مظلوم كانت مفتوح لها أبواب السما.

ــ لكل ظالم نهاية.

ــ داهية تلعنه في كل كتاب.

ــ يا جدعان ما يصحش كده.. دا برضه بطل من أبطال أكتوبر.. دا صاحب الضربة الجوية اللى كانت مفتاح النصر.

ــ إمشِ يا ابن الوسخة يا معرَّص.. دا كان مستخبى زى الفار فى دشمة تحت الأرض، ولَّا إياكش فاكره كان فـــي الحـــرب ســـايق طيارة؟

تلتف حلقة ضيقة حول صاحب مقولة الضـــربة الجويـــة، وينهالون عليه ركلاً بالأقدام وضربًا باللكمات فيفـــر مـــن بيـــنهم مذعورًا، فيعاودون التفافهم وحلقتهم النقاشية المفتوحة:

ــ أما هو بطل، أمال ولادنا اللي كان في إيديهم السلاح ومـــاتوا ع الجبهة يبقوا إيه؟

ــ ولادنا اللي استشهدوا دول هما الأبطال بحق وحقيق.

ــ وهو يعنى عشان بطل، يحط البلد كلها في كرشه؟

ــ حسنى مبارك يا طيار.. جبت منين سبعين مليار.

ــ يعنى بالتقريب كده، لو رجعنا الفلوس دى، نصيب الواحد فينـــا ييجى كام؟

ــ عشان تحسبها صح، ضيف عليهم كل اللى سرقته شلة الحرامية حبايبه وحبايب النننوس ابنه.

ــ والله الفلوس دى لو رجعت واتقسمت بما يرضى الله، أقل عيـــل فيكِ يا بلد هيبقى مليونير.

الرجل ذو الجلباب الأبيض يعافر بعكازه للوصـــول إلـــى الحلقة، يحدثهم بصوت مختنق بالدموع وبلغة حماســـية وكلمـــات متداخلة سريعة:

ــ الله أكبر.. الله أكبر.. عشت لليوم اللى كنت فاكر إنى هموت قبل ما أشوفه.. دا رزقكم يا ولاد، أوعوا تخيبوا خيبتنا وتفرطــوا فــى حقكم تانى.

على الرغم من كل احتياطاته تفر الدمعة ثانية من عين منتصــر، وكعادته يلاحقها قبل أن تفضحه.. تذكر كلمات والده الــذى كــان يبشره بأيام الخير والهنا اللى هيشوفها منتصر وذريته، فقــال فــى سره: " الله يرحمك يا با".

منتصر تدفعه الجموع حتى وجد نفسه فى التحرير.. هالــه المشهد الرهيب وهو يتراءى له من عند عبد المنعم رياض، ما بين تقاطعات الظلمة والضوء يرى الميدان ككتلة سوداء هائلة ترتفــع أعلاها مئات الآلاف من الأعلام المرفرفة، يتداخل الأبــيض فــى الأحمر فى الأسود مع تقاطعات الظلمة والنــور.. دوى زغــاريط هائل قادم من الميدان، مئات الآلاف شاركن فى صنع زغروطــة متواصلة مختلطة بأصوات صفير متقطــع وصــيحات تكبيــرات وصراخ، تصنع دويًّا مبهجًا.. يتقدم إلى الداخل مخترقًــا الحشــود بصعوبة بالغة، اتفقت كل المنصات ومكبرات الصوت على أغنيــة واحدة: "وقف الخلق ينظرون جميعًا.. كيف أبنــى قواعــد المجــد وحدى". يصطدم بشاب نحيل يدور حول نفسه فاردًا ذراعيه ويبكى

بهستيرية، تقترب منه سيدة عجوز، تسأله باستغراب: " إنت بتعيط؟ بتعيط؟". الشاب يرتمى فى حضنها ويبكى بنهنهة وملامح وجهه حائرة ما بين الدهشة والذهول: " مشى يا حاجة.. إحنا مشيناه". تبدأ جموع الميدان فى الانقسام إلى دوائر وكل منها يرقص فى دوائر متداخلة مع التلويح بالأعلام، وعلى خلفية أغنية الست: " أنا إن قدَّر الإله مماتى.. لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى"، تتداخل صيحات الشباب فى الدوائر المتباينة: " ارفع راسك فوق إنت مصرى".. عشرات الشباب يصعدون أعلى الدبابات، والجنود يمدون لهم أيديهم ليساعدوهم فى الصعود، والشباب يرقصون بالأعلام أعلى الدبابات.. مئات الصواريخ الملونة تنطلق فى سماء الميدان، السماء تصرخ ناطقة بفرحة أهل الميدان.. لا يعرف كم مر من الوقت على ذوبانه وسط هذا الطوفان البشرى المدوى بالفرحة، لكنه وسط هذا الطوفان لا يستطيع تقرير مصيره، فترك نفسه لتدافع الجموع التى تسحبه حتى محطة الأوبرا، أكمل الطريق وسط الزحام حتى كوبرى الخشب، ومن هناك أخذ الميكروباص إلى الطالبية. السائق يرفع صوت الكاسيت لآخره؛ فيدوى صوت شادية من السماعات التى تحيطهم من مقدمة الميكروباص وخلفيته:

ـــ ما شافش الأمل

فى عيون الولاد

وصبايا البلد

ولا شاف العمل

سهران فى البلاد

والعزم اتولد.

حالة بهجة تطل من الوجوه والكل فى مناقشة متداخلة عن أحلامهم للمستقبل، السائق يترك عجلة القيادة، ويرفع يديْه يطوحهما فى الهواء فتتراقص السيارة، وهو يصرخ مرددًا مع شادية: " أصله ما عداش على مصر.. يا حبيبتى يا مصر"، يصرخ فيه الركاب فى نَفَس واحد: "حاسب يا أسطى وحياتك عايزين نروَّح بيوتنا نحتفل مع ولادنا". السائق يتلاعب بعجلة القيادة فتتراقص السيارة: " والله هتحلو وهتزهزه وهنتجوز يا بشر". الركاب ينسوْن مخاوفهم ويتجاوبون بالضحك مع كلمات السائق.

الفرحة مقسمة بالتساوى على كل الأحياء والحارات. رأى على شارع الهرم وشارع الطالبية الوجوه الفرحة المستبشرة وكأنها نسخ متطابقة مما رآه فى الميدان، والصراخ والتهليل والأعلام

المرفرفة ذاتها فى يدى الصغير قبل الكبير وكلاكسات البيب بيب.. وهتاف واحد اتفق عليه الجميع فى كل الطرق والميادين والحارات: "ارفع راسك فوق إنت مصرى". الوجوه كلها تضحك لبعضها دون سابق تعارف. من الطالبية أخذ عربة نص النقل المغلقة كصـــندوق حتى العزبة، النسوة المحشورات فى صندوق العربة وسط الرجال يختفى تأففهن المعتاد، وينطلقن فى الزغاريط والغناء المرح وكأنهن طالعات رحلة.

حفيظة لا تعرف قـــاموس كلمـــات الحـــب والـــدلال، ولا وحشتنى ولا كنت قلقانة عليك، نظرت إليه بوجهها البـــادى عليـــه الإجهاد من قلة نومها فى الأيام السابقة، وتعصـــيبة رأســـها مـــن الصداع الذى لازمها طوال غيبته، وبنصف ابتسامة، وتنهيدة ارتياح وبمعاتبة خشنة:

ــ توك ما افتكرت إن ليك بيت يا راجل؟ يعنى لو الريس ما كانش مشى كنت هتقعد فى الميدان العمر كله؟

وقبل أن ينقلب الأمر إلى مشاحنة، تقترب منه وهى تتفحصه وتدور حوله كأم تتفحص ابنها بعد عودته مضروبًا فى المدرسة:

ــ يا نهار إسود لونك مخطوف كده ليه يا راجل؟ وإيه ده؟! مـــال هدومك كده وكإنك خارج من بكبورت؟

ــ بكبورت! داهية فى ملافظك يا حفيظة.. الملافظ سعد يا ولية، بس والله يا بت عندك حق، أنى كنت بنام وسط بكبورت.

ــ أكيد يا أخويا على لحم بطنك من يوم ما رحت الميدان. يلا.. يلا، خش الأول استحمى، أنى محوشة مية م الفجرية، هاسخن لك المية فى الغلاية، وعلى ما تستحمى أكون عملت لك شوية شوربة عدس يرموا بدنك، ثم وهى تبتسم ابتسامة خجلى ذات مغزى، وهى تدارى وجهها كسوفًا بالنظر لأسفل حتى لا تتلاقى عيناها بعينيه: " وها أعملك جنبها أجنحة الفراخ اللى بتحبها، لسه شاريها النهاردة كأن قلبى حاسس إنك جاى".

لا هياكل ولا هيشرب، هيستحمى وينام من دلوقتى لحد بكرة الصبح، وبكرة من بدرى هيخرج يروح المحطة. بعد اللى حصل ده، من بكرة هتبقى الدنيا غير الدنيا وهتتعدل المايلة.. يتذكر أمه وهى تهدهد شقيقه الأصغر "مصباح" حتى ينام فى حجرها وهى تعدد بأغنيتها النواحة: "ولابد من يوم معلوم / ترتد فيه المظالم أبيض على كل مظلوم/ أسود على كل ظالم".

منتصر وهو متوجه نحو ركنة الاستحمام بالغرفة محتضنًا الفوطة والغيار اللى أخرجتهم له حفيظة من سحارة الكنبة

الإسطمبولى ووضعتهم أعلاها، وهو يعلقهم على المسامير أعلى جدار ركنة الاستحمام والتى تقوم مقام الشماعة، يردد لنفسه بصوت مسموع مؤتنسًا بوشة وابور الجاز أسفل الغلاية:

"أخيرًا يا مه جه اليوم المعلوم اللى هتترد فيه المظالم. الله يرحمك يا مه.. الله يرحمك يابا".

يتلفت حوله، يتأكد من أن حفيظة لا تراه، فيتمايل نشوة ويضم قبضة يده اليمنى ويرفعها لأعلى كشباب الميدان، ويردد بصوت خفيض بأسلوب غنائى وهو يدور حول نفسه: " ارفع راسك فوق انت مصرى"، ويضحك على نفسه فى سره، عندما يتخيل نفسه لو كان قد قام بهذه الحركات فى الميدان مثل الشباب.

عند تجهيز منتصر لهذه الغرفة لتصبح عش زوجية، ولأنها لا تحوى حمامًا مستقلًّا، قام بفصل الجزء الجنوبى من الغرفة بماسورة بلاستيك قريبة من السقف، تصل بين الجدارين وعلق عليها ستارة بلاستيك أرضيتها مشجرة بالورود الملونة؛ لتفصل الغرفة إلى ثلثين للمعيشة، هما الثلثان المواجهان لباب الغرفة، وفى الجزء الداخلى ثلث الاستحمام، اشترى له طشت ألمونيوم كبيرًا للاستحمام وغسيل الهدوم، وغلاية للمياه عبارة عن صفيحة سمن

صاج كبيرة وكوز صاج، وتتراص فى هذا الجزء زجاجات المياه المعدنية التى يجمعها من المحطة، بالأحجام كافة لتخزين المياه لاستخدامها طوال اليوم. فى القسم الثانى الأمامى الذى يشمل ثلثى الغرفة، وضع منتصر قريبًا من الباب كنبة إسطمبولى بسحارة للجلوس وتخزين الملابس والملايات والفوط فى السحارة، أمامها وفى منتصف الغرفة قام بتجديد سريره الصغير بسرير أكبر يكفيه هو وحفيظة، وأعلى السرير شباك الغرفة الصغير؛ منفذ الهواء الوحيد للغرفة، وما بين السرير والكنبة هناك طبلية خشبية، كانت أول ما اشتراه منتصر عند تأجيره الغرفة والاستعاضة عن السرير بالنوم أرضًا حتى استطاع شراء السرير الصغير. فى نهاية طرف ثلث الاستحمام واستنادًا إلى الجدار الأمامى، وضع منتصر ترابيزة فوقها البوتاجاز المسطح وتحتها وابورا الجاز الاحتياطيان؛ أحدهما لتسخين ماء الاستحمام والآخر احتياطى للبوتاجاز، ترفعه حفيظة إلى أعلى الترابيزة لما تشطب أنبوبة الغاز، وأعلى الترابيزة تضع حفيظة أدوات المطبخ، وقد اشترت مؤخرًا صفاية معدنية للمواعين علقها لها منتصر بالمسامير أعلى الترابيزة، أما تحت الترابيزة وبجوار الوابورين فتضع حفيظة كرتونة كبيرة بها خزين البيت من أرز ومكرونة وسكر وزيت وشاى وعيش وبقسماط تحرص على شرائه باستمرار، يأكله منتصر مع الشاى فى سهراته أمام

التلفزيون، وقد اعتادت حفيظة ومنتصر على أن يطلقا على هــذه الكرتونة "الخزانة"، وعادة ما تكون حفيظة فى منتهى الحذر بفصل جركن الجاز والوابورين بعيدًا بمسافة كافية عن كرتونة الخــزين حتى لا يلقط الخزين جازًا. بعد الترابيزة على الجدار ذاتــه وفــى مواجهة الطبلية يضع منتصر صندوقًا خشبيًا مســتطيلًا كصــناديق ماسحى الأحذية، له باب بقفل يضع فيه الأوراق الرسمية المهمــة من عقد جواز وإيجار ووصولات إيجار الغرفة، وأعلى الصــندوق وضع التلفزيون الأبيض والأسود الصغير.

حتى لا يشعر منتصر بالبرودة؛ اعتادت حفيظة أن تترك له وابور الجاز مشتعلًا أسفل الغلاية لتدفئــة الركنــة طــوال فتــرة الاستحمام، بجواره الجردل تملؤه من الزجاجات بالميــاه البــاردة، ومنتصر وهو وسط الطشت يمد يده بالكوز ليغرف نص كوز مــن الماء المغلى ويفتره بماء الجردل. بعد الاستحمام وعند الفجر وقبل ملئها المياه النظيفة، تنضح حفيظة ماء الطشت بــالجردل وتنــزل لتصبه على عتبة البيت الخارجية مراعية توزيعها فى الشارع حتى لا تتراكم محدثة بركة موحلة، ومثلها تفعل كل نسوة البيت والبيوت المجاورة؛ حتى لا يطفح طرانش البيت، ويتشاجرون جميعًا، كــل عيلة فى غرفة تتهم الأخرى بأنها سبب طفح الطرانش، بإلقاء ماء

الحموم فى عين الحمام، والجيران يسبون ويلعنون فـــى الرايحـــة والجاية؛ لأن المجارى طفحت من الطرانش بتاعهم وغرقت الشارع فيضطرون لاستدعاء عربة المجارى لنزحه؛ بما يكلفهم أعباء مالية جديدة.

على الرغم من التعب وجسمه المهدود، استعصـــى عليـــه النوم بعد الحمام، قعد منتصر قدام الطبلية وطبق العدس يتصـــاعد منه البخار، وهو يفت فيه رغيف العيش متطلعًا إلى التلفزيون، وما بين لقمة والثانية يمصمص أحد الأجنحة؛ هذه الوجبة التى تكافئـــه بها حفيظة كل كام أسبوع، والتى تكـــون إيـــذانًا برضـــاها عنـــه وسماحها له بالنوم معها. ينادى منتصر على حفيظة اللـــى كانـــت بتعمله الشاى، تيجى تشوف الجنود وهما واقفـــين قـــدام الكـــاميرا بتاعت التلفزيون فرحانين بتصويرهم وهمـــا رافعـــين صـــباعين النصر، والأهالى عمالين يرفعوا ولادهم يتصوروا جنب الجنود ع الدبابات اللى مكتوب عليها " يسقط حسنى مبارك". الجملـــة اللـــى حفظ حروفها رسمًا ونطقًا على يد مينا الله يرحمه.

ـ ١ ـ

صحف القاهرة صباح الخميس ١٧ فبراير ٢٠١١ :

الأهرام:

ـ تورط ٢٨ رجل أعمال فى تجارة الأراضى.

الأخبار:

ـ وزير الداخلية السابق وأسرته أمام الجنايات اليوم.

ـ قروض بدون فوائد لأسر شهداء ثورة الشباب.

الجمهورية:

ـ بشائر الثورة: تأجيل ضخ الغاز لإسرائيل لأجل غير مسمى.

المصرى اليوم:

ـ " الزراعة": قائمة سوداء بأسماء المتعدين على أراضى الدولة.. والخسائر المبدئية ٧٨ مليار جنيه.

الشروق:

ـ لجنة تعديل الدستور تعقد اجتماعها يوميًا لإنجاز المهمة فى ١٠ أيام.

الصف النهاردة برصته ع الرصيف من صبحية ربنا لأدان المغرب ما تعتعش منه ولا نفر واحد يوحد ربنا.. المقاطف مرصوصة على طول الصف، كل مقطف مسنود عليه إما فاس وإما كريك، وجواه باقى العِدة، كل إيد متبتة عليها وعلى أهبة الاستعداد لطلة الزبون اللى ما بيجيش فى الأيام الغبرا دى.. إمبارح طول النهار كل اللى جبر م الجرمأ ده كان جوز أنفار، وكل الشغلانة كانت رفعة رمل.. اليوم اتقضى فى حكايات الكبار اللى اتحبسوا، والعيال اللى استشهدوا، وأقسام الشرطة اللى ولعت والبلطجية المطلوقين ع الغلابة.. الواد عبد الفتاح كان شارى جرنانين مرة واحدة، وتحت باطه كذا جرنان كان شاريهم طول الأسبوع اللى فات، وبيقرا بصوتٍ عالٍ عشان يسمعه بقية الصف، وكل شوية يتنقل جرنان بين إيدين الصف يبصوا على صورة من صور الكبار، وتبدأ مصمصة الشفايف وسبحان المعز المذل، وتدور الحكاوى ع الصف من اللى سمع عن العشا اللى كان بييجى بالطيارات من أوربا، واللى سمع عن عصير بيجيلهم من أمريكا يخلى بتاع الواحد واقف أربعًا وعشرين ساعة، واللى سمع عن الحقن اللى بياخدوها فى ألمانيا تخلى الواحد شباب على طول، وبين كل حكاية والتانية تتمصمص الشفايف تانى وتالت وتخرج تكرارات

الجملة من دون ملل وكأنها بتتقال للمرة الأولى: "سبحان المعز المذل".

منتصر لما جه عليه دور البص قعد يستهجى العنوان بصوتٍ عالٍ، اتلخبط الصف واتحول لدايرة حاوطت منتصر وكأنه عجبة، الواد عبد الفتاح ركب فوق ضهره، كل ما يلاقيه طوِّل وهو بيستهجى كلمة يقوم مساعد فيها، وأخيرًا كمِّل العنوان صح بمساعدة عبد الفتاح: "قائمة سوداء بأسماء المتعدين على أراضى الدولة والخسائر المبدئية ٧٨ مليار جنيه". منتصر يرفع وجهه عن الجرنان ويوجه حديثه إلى الزملاء: "يا ألطاف الله، دى بلدنا غنية أوى يا جدعان، بلدنا إيه بقى؟".. ساعة ما كان مينا بيقول له الحواديت دى، الأول ما كانش بيصدقه قوى، بس لما عاشر مينا فى الكام يوم اللى كانوا فاضلين فى دنيته، عرف إن واحد زيه يستحيل يكدب، وعلامه هو وزملاته، هو اللى خلاهم يجيبوا التايهة: "الله يرحمك يا با والله مسامحك، بس لوكنت قرصت عليَّه شوية فى موضوع العلام ده؟". افتكر الولاد فى الميدان وهما بيتسَّقطوا زى الدبان وافتكر جاية مينا عليه عند مدخل المحطة كأنه صاغ سليم وفجأة طب ساكت، عينيه رغرغت بالدموع، خلع النضارة بسرعة ومسح عينيه بكم الجلابية الصوف الواسع، ولأنه

بيكابر وما بيحبش تبان دموعه لحد، قال بصوت متلجلج: " زعابيب أمشير يا ولاد.. حاسس بتراب دخل فى عينيه"، واترحم علي مينا فى سره وعلى كل الولاد والبنات ونقل الجرنان للى جنبه.. رجـــع الصف لرصته، وبدأت دورة الحكاوى من جديد، عن العيال اللــــى لسه خُضر واستشهدوا، وثروة مبارك ويا تـــرى هترجـــع ولا لأ؟ ومبارك نفسه يا ترى هيتحاكم بجد ولا هيهربوه أو يموتـــوه.. أول ما اترفع الأدان، قام منتصر ولفح العدة على ضهره وقبل ما يعدى الشارع عشان يلحق المغرب جماعة، وقف منتصر وســـرح كـــإن طبت على نافوخه فكرة مفاجئة، رجع تانى للرصيف واتلفت ناحية الواد عبد الفتاح:

ــ إيه رأيك ياد يا عبد الفتاح، تيجى من أول الأســـبوع الجـــاى نشغِل قعدتنا دى بحاجة مفيدة، تعلمنى القراية من الجرنان لحد مـــا يهل الزبون؟

عم عبد الغفار، أكبر المجموعة سنًّا، فقد جـــاوز الســـتين، يضحك فجأة وفمه ممتلئ بدخان السيجارة فيشرق، ويبدأ فى السعال ويوجه حديثه الساخر لمنتصر وسط سعاله وضحكته المسرســـعة كضحكة طفل وهو فاتح فمه على آخره فتظهر لثته الهتماء:

ــ بقى بعد ما شاب ودوه الكُتَّاب؟ يخيبك يا منتصر، بعد العمر ده عايز تتعلم ؟ وبعدين هتعمل إيه بالقراية يا فالح؟ هــتغم نفســك ع الفاضى وشغلانتنا دى لا هى محتاجة قراية ولا كتابة.

عبد الفتاح متشجعًا بحديث عم عبد الغفار:

ــ صحيح يا با منتصر عاوز القراية فى إيه؟ ما أنى معايا دبلــوم أهو، فادنى بإيه؟

"منتصر يتجاهل تعليق عبد الغفار ويوجه حديثه إلى عبد الفتاح":

ــ ما أنت أصلًا واد فاشل، إيو واللهِ، ما هو لما يبقى معاك الدبلوم وتقعد قعدتنا دى تبقى واد فاشل، عليَّه النعمة لو معايا الدبلوم بتاعك ده لكنت هديت الدنيا، وبعدين ياد وانت مــال أهلــك؟ أتعلــم ولا ماتعلمش ده يضايقك فى إيه؟ أنى ياسيدى عليِّه أنى الجرايد، وغير كده كمان خد عندك دى يا سيدى، لو اتكيفت من علامك لهديك من كل مقاولة تجينى عشرة جنيــه، يعنــى بفلوســى هتــدينى درس خصوصى وإنتَ أولى من الغريب.

ــ ما شى يا با منتصر، طالما فيها مصلحة، نبتدى من بعد بكره إن شاء الله، على أولة الأسبوع.

عم عبد الغفار مستفسرًا:

ــ أولة الأسبوع إيه يا واد يا عبد الفتاح؟ هو أنت مــش هترجــع شغلك أولة الأسبوع يا منتصر؟

أنى فكرى إنك واخد أجازة اليومين دول، وبعديها مش هنشوفك إلا فى الأجازات زى العادة.

ــ لا يا حاج عبده أنى معاكم من هنا ورايح كل يوم.

ــ طب وشغلك؟

يتهرب منتصر من الإجابة عن سؤال عم عبد الغفار، فيوجه حديثه إلى عبد الفتاح:

ــ الشغلانة دى تاخد لها أد إيه، وأقرا الجرنان لبلب زيك كده ياد يا عبده؟

ــ سنة يا با الحاج.

ــ عليَّه النعمة إنت واد نصاب وضلالى وحرامى وعــايز تقــرا الجرانين سفلقة على حسابى وتفضل تلهف من كل شغلانة تجينــى العشرة جنيه، أنى واحد معرفة باشمهندس قد الدنيا ــ وردد علــى مينا: الله يرحمه فى سره ــ كان قال لى: تلات شهور.

يضحك عبد الفتاح:

ــ ماشى يا با الحاج منتصر ها عصر نفسى، وأخليك أسطى قراية فى التلات شهور.

ــ تحب أجيب لك جرنان إيه؟

ــ الأهرام يا با الحاج، جرنان كبير ومليان كلام كتير، أهو يسلينا طول القعدة.

ــ طب أنى بقى رايح الجامع ألحق المغرب جماعة.

يلفح منتصر العدة على كتفه، ويهم بعبور الشارع، فيعاجله عم عبد الغفار:

ــ ما تسيب العدة جنبينا لحد ماتصلى وترجع تاخدها.

ــ لا يا حاج عبده، أنى هقعد لحد ما ألحق العشا، وأطلع طوالى ع المحطة.

يراقب منتصر حركة السيارات منتظرًا الفرصة الســانحة لاجتياز الشارع، وعينه متنقلة ما بين الصــف والشــارع بنظــرة تحريضية لينهضوا معه للصلاة. الجالسون يتبادلون النظرات فيمــا بينهم، ومنتصر يرقبهم بنصف عين متلكئًا حتى يلحقه الصف. بعد نظرات متبادلة ومترددة بين العيون، قام ثلاثة أرباع الصف خلف منتصر، وبقى نفر قليل مع عبد الفتاح من ضمنهم عم عبد الغفار. منتصر يتوقف ثانية ويلفت رقبته ناحية عبد الفتاح:

ــ ما تقوم يا واد يا عبد الفتاح تخطف المغرب معانا، إنــت واد جدع ومستخسرك فى النار، اللى عمرى ما شفتك ركعتها.

عبد الفتاح باقتضاب وقد أغرق رأسه فى صـــفحات الجرنـــان، يواصل القراءة الآن مع خفوت الضوء، علـــى ضـــوء المصـــباح الفلورسنتى الملاصق للرصيف والذى أضيء للتو:

ــ سيبنى على راحتى يا با الحاج منتصر.

يعاود منتصر النظر ثانية إلى المجموعة المتبقية ويوجـــه حديثه هذه المرة إلى عم عبد الغفار:

ــ ما تقوم تلحق المغرب معانا يا حاج عبده، طب هو واد طـــايش ولسه قدامه العمر، لكن اللى زينا خلاص على تكة، قوم قوم بلاش كسل، هو دا اللى باقى لنا وحياتك.

عم عبده يقوم بإشعال سيجارة جديدة:

ــ اتكل على الله انت يا منتصر، ما كفاية عليك اللى قاموا معاك، وبعدين يا أخى ما قلت لك قبل سابق إن روحى بتلقف لما بســجد، هابقى أصلى فى البيت، وبعدين أنى هقعد آخد بالى من العِدة.

منتصر ينزِّل العدة من على كتفه، ويتجه نحو عـــم عبـــد الغفار الجالس القرفصاء، يجذبه من ذراعه وينهضه رغمًا عنه:

ــ يلا يا شيخ قوم قوم، فيه دكة ورا فى الجامع، صلى وإنت قاعد، والواد عبد الفتاح هياخد باله من العِدة، وبعدين إرمى بقى الزفتة اللى فى إيدك دى.

يحاول منتصر سحب السيجارة من فم عم عبد الغفار؛ فينفجر فيه غاضبًا:

ــ بقولك إيه يا منتصر غصبت عليِّه آجى معاك للجامع وقلت: ماشى وأدينى قايم أهو، لكن كله إلا السيجارة، خليك فى حالك بقى يا أخى الله يبارك لك.

بعد صلاة المغرب يجلس منتصر فى الصف الأول أمام شيخ المسجد السُّنى الذى يعطيهم درسًا من بعد المغرب حتى أذان العشاء عن مآثر السلف الصالح، لكن كل حديثه اليوم كان عن جمعة النصر غدًا فى الميدان. بعد صلاة العشاء، لفح منتصر العدة التى يتركها على مدخل المسجد، وخرج معه زملاء الرصيف، منتصر يسألهم: "هتروحوا بكره الميدان زى ما قال مولانا؟". يرد عم عبد الغفار: " ميدان إيه يا منتصر؟ الجيوب فاضية والعيال فى البلد عايز أبعت لهم مصاريف، أنى عن نفسى هطلع ع الرصيف م النجمة، دايمًا ربك بيكرمها معايا فى اصطباحات الجمع، أصل

الجمعة دى بتبقى فيها بركة من ربنا". يرد عليه الباقون: " واحنـــا هنخرج معاك يا با عبد الغفار"، يواصل عم عبد الغفار: " ميدان إيه وقرف إيه؟ شفنا إيه من الثورة والإيـــام الغبــرا دى غيــر وقفـــة الحال".. يودعون منتصر ويعودون إلى الرصيف ليصحبوا بـــاقى زملائهم بمقاطفهم وعِددهِمْ، ويعودون معًا إلى الشقة "المطـــرحين" التى يؤجرونها فى العمرانية للنومة ويتكدسون جميعًا فى غرفتيها؛ هذه الشقة التى تقع فى الدور الأرضى بأحد العقارات المتهالكة التى كانت مخزنًا لأحد المطاعم القريبة، وقام صاحبها بتأجيرهـــا لهـــم بالنفر، كل منهم يدفع أجرة شهرية مائة جنيه، والتـــى لا تحـــوى أرضيتها سوى الحصير والكليم الخشن والبطاطين الرمادية الكالحة، فيتكدسون كل خمسة فى غرفة ويستعيضون بتلاصق أجسادهم عن نقص الأغطية.

يتوجه منتصر ناحية محطة الأتوبيس.. آخر الأسبوع وكان نفسه يرجع البيت بجيوبه دفيانة، أقله يدخل على حفيظـــة بفطيـــرة بسكر ولا نص كيلو بسبوسة أو حتى كيلوين برتقان أو حتى كيلوين فول حراتى يقزقزوهم مع حتة الجبنة القديمة والمـــش ورغيفـــين ناشفين.. لكن آدى الله وآدى حكمته.. الرزق شحيح اليومين دول، على الرغم من أنه مواظب على أدعية فك الكرب وجلب الـــرزق

اللى حفظّها لهم مولانا، لكن مفيش فايدة.. على الرغم من غرامه بالأتوبيسات الزحمة.. ما لوش نفس النهاردة، ولا الكذا يوم اللى فاتوا، دا حتى حفيظة ما عدش بيناقر ويعافر معاها ع النومة زى الأول.. قاعد يستنى أى أتوبيس ييجى فاضى.. حاسس إنه مخنوق، لو كان خفيف كان فك خنقته بالتمشية لحد الطالبية، بس العِدة تقيلة، من ساعة ما رجع تانى لقعدة الرصيف بشكل دائم وحرصًا على أى رزق ييجى وما يتبطرش ع النعمة، بقى بياخد كل أدوات العِدة معاه، المطرقة والأجنة والبنطة والعتلة والمرزبة وكمان المقطف والكريك، عشان يكون جاهز لصاحب النصيب، سوا رفع رملة وطوب أو تكسير وهدد أومساعد ورا بنا ولا ممحاراتى ولا مبلط.. مولانا النهاردة ما جابش سيرة السلف الصالح، طول الخطبة كان عمَّال يحكى لهم عن جمعة النصر اللى هتكون بكرة فى الميدان، وإن المشاركة فيها حق واجب على كل المسلمين لنصرة الحق، مش عارف يصدق مولانا ولا يصدق اللى شافه بعنيه فى آخر يوم راح فيه الميدان، يوم ماترفد من المحطة: "هتعيش الوهم تانى ياد يا منتصر؟ مانت قلتها ساعتها.. خلاص المولد اتفض وكل واحد روح على بيته".. مولانا بيقول هيصلى الجمعة بكرة بالناس فى الميدان العالم الجليل الشيخ القرضاوى.. اتكسف يسأل مولانا: مين ده الشيخ القرضاوى؟ بس باين من كلام مولانا وتكبير المصلين فى

المسجد بمجرد ما سمعوا الاسم، إن الشيخ القرضـــاوى ده حاجـــة كبيرة قوى.

اتعود منتصر تو ما يخطى عتبة الحوش يكح كحتين تلاتة، بعديهم سمع صوت رجلين بتجرى على ســلالم الحــوش ناحيــة السطوح.. شاف البت لواحظ قاعده مفرشحة رجليها على بســطة السلم اللى فى النص، وسدرها كله بره.. فى عز البــرد ده شــاف السدر بيضوى مع حبات العرق المبدورة حواليه وكأنه بيبخ نار.. البت ولا اتحركت ولا اتكسفت ولا حتــى لمــت رجليهــا ودارت سدرها، عينها تندب فيها رصاصة وكأنه هــوا معــدى.. بــرغم الضلمة وعدستى نضارته سيئة الصنع، فإنه أكل سدر البت أكلًــا وهو معدى ورجله غصب عنه أو بمزاجه حكت فى ورك البــت، فحس وكأنه خبط فى حتة عجينة طرية مافيهاش حتــة عضــمة، اتحسر على نصيبه، وعود حفيظة اللى عامل زى عــود الحطــب اليابس. حس إن جسمه بيبخ نار وكأن البت نقلت لــه العــدوى.. طالت الوقفة ومع بداية تحركه اتكعبل وقع فوق البت، وستر ربنــا حدف العِدة بعيد عن جسم البت، اتنفض وقام بسرعة، حس وهــو قايم بيتنفض كأنه قايم من فوق فرن موهوج.. برطم بكام كلمة وهو بيعدل النضارة، وبيلم العِدة اللى اتبعترت علــى الأرض، وطلــع

جرى ع السلالم وصوت ضحكة البت ونأورتها بيطارده لحد بــاب الأوضة: "مش تبقى تاخد بالك من حطة رجلك يا مولانا؟".. قبل ما تختفى من قدام عينيه، اتلفت ولزق النضاره جامد علــى عينيــه، وفرك لحيته بحركة عصبية وكأنه يتأكد من أن اللحيــة ــ رمــز وقاره ــ مازالت فى مكانها من وجهه.. البت لسه طالقة ســدرها ومفرشحة رجليها وعينيها تندب فيها رصاصة.

شم طشة العدس وهو بيفتح الباب، حمد ربنا إن الأنبوبــة خلصانة وصوت الوابور مغطى على أى صــوت بــره.. يهمــس لنفسه: "يا سلام يا حفيظة لو كنتِ حمصتِ العيش بحتة سمنة بلدى زى ما عملتِ يوم ما رجعت م الميدان.. هه دا كان يوم وعــدى، بعديها رجعت ريمة لعادتها القديمة"، يومها برضه كانت الأنبوبــة فاضية وحمصت له العيش ملحوس بالسمنة البلدى فــوق الوابــور على صاجة شى السمك.. فرغت له الشوربة فى الطاسة وجابت له الرغيف البايت من الخزانة وقعد هو يفت لنفسه فى الشوربة، هــى بتحب تاخد الطبق بتاعها على بوزها على طول وفى إيدها لقمــة العيش تقطم لقمة وتبلّع بحبة شوربة، كانت جايبة التلفزيون علــى تمثيلية قديمة. قبل ما يتكلم، عارفة هيقول لها إيه، قامت من مكانها وغيرت القناة على نشرة تسعة.. سمع المذيع بيتكلم عن استعدادات

مليونية النصر، بدأ منتصر يكمل لها الحكاية حسب ما سمعها في الجامع وحكى لها عن الشيخ اللى اسمه القرضاوى، برغم إنه حلف بأيمانات الله ما يهوب ناحية الميدان تاني، فإنه كان بيحكي وبيتلكك، نفسه يسمع منها قولة: " ما تيجى نروح يا خويا.. نفسي أشوف الميدان"، كما توقع شبطت حفيظة زى العيال الصغيرة، وفجأة ظهر الاهتمام والفرحة على وشها: " ما تييجي نروح ياخويا.. والنبى عشان خاطرى أنى نفسى أزور الميدان".. يبتسم: " يعنى هتزورى أم هاشم يا ولية؟ صحيح ناقصات عقل ودين.. ما المولد اتفض يا حفيظة، الله يرحم ولادنا اللى راحوا فى المعمعة فطيس".. يبدى تمنعًا خاطفًا بعدة هزات من رأسه كأنه متضرر، بعدها يلحق نفسه لترجع فى كلامها: " حاضر يا ستى، بس قومي بقى دلوقتى الحقينى بكوباية الشاى المعتبرة نحبس بيها العدس".

حفيظة فهمت غرضه من طلب الشاى فهبت فيه وهي قايمة: " أنى هاعلق لك ع الشاى وإنت بقى قوم صبه، هاقوم أنام أنى بقى عشان أعرف أصحى الفجر لخزين المية، مفيش عندنا ولا نقطة مية فى البيت، ودلوقتى يا دوب بتيجى النص ساعة بتاعت الفجرية، وإنت كمان ما تطولش قدام التلفزيون، يا دوب تشرب الشاى وتيجى تنام عشان عايزاك توديني الميدان م الصبح بدرى".

المكان كيوم الحشر تمامًا كما رآه منتصر يــوم خروجــه الأول من محطة المترو بعد انطلاق الدخان الخانق داخل المحطة.. بس تفرق كتير، يوميها كان كله شباب وبنات صغيرة وعساكر ما ليها أول من آخر، ودخان بيحرق فى العينين والســدر، وتكســير وضرب نار وخراطيم مطافى بتغرق الناس مية فى عز البــرد ده، ونار بتولع وعيال بتموت بحق وحقيق ســوا مــن الرصــاص أو الدهس تحت عربيات البوليس اللى بتعدى عليهم وكإنهم صراصير، وكله ملهى فى حاله بيقول: يارب نجينى.. شباب وعيال وكبــار، ستات ورجالة، كلهم لابسين هدوم مزهزهة وكإنه يوم العيد، وكله ماسك الأعلام على كل شكل ولون وبياعين حمص وترمس وفيشار وبطاطا وشاى وقهوة وكاكولا ومية وسندوتشات، وكله بيدور على أى شخبطة أو علامة على جدار وهاتك يا تصــوير بالموبــايلات لأولاده وبناته أو أصحابه، دى ولا جنينة الحيوانات يوم شم النسيم؟ بس اللى غاظه إن الناس بتتسابق على رفع ولادها جنب العساكر ع الدبابات وهاتك يا تصوير.. يا سبحان الله وكإن مش هما دول اللى شافهم بيحرقوا فى الخيام وبيضربوا فى العيال بِغِل! اللـــى غاظــه كمان أكتر إنه شاف العيال السريحة مجمعين صور الشــهداء فـــى كارت معايدة وبيبيعوه للناس بجنيه، والناس بتشتريه وهى فرحانة.

نبه على حفيظة ما تتنقلش من مكانها ده فى وسط الســتات عشان الصلاة، أما هو فكالمعتاد قعد يعافر ويخطى فــوق أدمغــة الناس عشان يوصل للصــف الأولانــى؛ عــايز يشــوف الشــيخ القرضاوى ده، ويسمع هيقول إيه وهو شايفه كده عينى عينك.

" أقسمت إن هذه الثورة ستنتصر وإن الله لن يخــذلها؛ لأن وعد الله لا يكذب أبدًا . قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، الجموع تردد بصوت يرتج له الميدان: " قل جــاء الحــق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًــا". "إن الباطــل لا يمكــن أن ينتصر أبدًا؛ لأن الباطل ساعة ولكن الحق إلى يوم الساعة". يــرتج الميدان ثانية بصيحة: الله أكبر. طلع راجل عجوز، كــل خطــوة بيمشيها بتسنيدة، كلامه ما يفرقش عن كلام مولانا اللى فى جــامع نصرالدين، بس الصراحة كش منتصر لما شاف ناس قيمة وســيما بتوطى تبوس إيديه.. انتظم وسط الجموع لأداء صلاة الغائب على أرواح الشهداء وتذكر مينا ودعا له بالرحمة، واتعشم من ربنا يجعل مثواه الجنة مع زملاته الشهداء المسلمين.

ـ يلا يا حفيظة.. ها أفسحك فسحة ملوكى.. هافرجك على الفساتين الألاجة والجزم الأبهة جوا البتارين، وهأكلك يا بت جيلاتى من عند العبد.

ـ إنت يا راجل اتجننت؟ بقى بدال ما تقول هتعزمنى على طبق بليلة سخن، تقول لى: جيلاتى؟

ـ دلوقتى تشوفى الخلايق اللى واقفة طابور عشان تاكل جيلاتى.. دا طعمه حلو قوى يا عبيطة.. وحلاوته بقى فى السقعة دى، قال بليلة قال!

لم يتعود منتصر أن يمشى وحفيظة بجواره، بل اعتاد أن يسبقها وهى تجرى خلفه للحاق به، أما هنا وخوفًا من الضياع وسط هذا الزحام، فيطلب منها أن تشبك يدها فى كوعه حتى لا تنفصل عنه، ولكنها مع تدافع الناس تتأخر عنه خطوتين، وتجاهد لاهثة لتتوافق خطوتها مع خطواته المتسارعة.

ـــ ٢ ـــ

صحف القاهرة صباح السبت ٢٩ يناير ٢٠١١ :

الأهرام:

ــ إقالة الحكومة.

ــ مبارك يحذر من مخطط لزعزعة الاستقرار والانقلاب على الشرعية.

الأخبار:

ــ عيشى يا مصر.

الجمهورية:

ــ مبارك يصدر قرارًا بحظر التجوال بالقاهرة والإسكندرية والسويس.

ــ الرئيس يقبل استقالة الحكومة ويكلف غيرها اليوم بمهام المستقبل.

المصرى اليوم:

ــ النداء الأخير.. انقذوا مصر.

ــ فرض حظر التجوال بجميع المحافظات .. ونزول الجيش إلى الشوارع بعد فشل الأمن فى مواجهة ثورة المتظاهرين.

الشروق:

ــ الشعب يريد التغيير .

ــ مئات الآلاف يطالبون بالخبز والحرية والكرامة الانسانية والشرطة تفقد السيطرة.

ــ الغاضبون يسيطرون على المبانى الحكومية ومقار الحزب الوطنى فى السويس ودمياط،

ويحتلون منزل محافظ بنى سويف ومقر وطنى المنصورة.

منذ خروجه من المحطة في ذلك اليوم الذي تبدى له للوهلة الأولى يوم الحشر، ومنتصر لا يشعر بالأمان إلا على مدخل سلالم محطة المترو المواجه للمتحف.. شاف بعينيه من موقعه الولاد وهم يتساقطون في وسط الميدان.. الشاب من دول يجرى هنا وهنـــاك ويفر العساكر من أمامه مفزوعين، وهو يطاردهم ولا يملك فى يديه إلا قطعة خشب أو حجرًا، فاتح سدره وفارد طوله، يقول: يا أرض اتهدى ما عليكى أدى، واللى لابسين خوذ وشايلين دروع وســـلاح، همَّا اللى كمشانين فى جلدهم وبيتخبطوا فى بعض وهما بيهربوا.. فى غمضة عين يسقط هذا الشاب وكأن يدًا خفية سحبت منه الحياة فجأة.. عشرات رآهم يتساقطون وكـــأنهم ذباب وليسوا بشرًا مثله، كل منهم عنده حفيظة ومشرف فى العمل مطلع دينه وبيت ســـوا أوضة أو شقة وأب وأم وأخوات وأصـــحاب وأحـــلام للمســـتقبل وبلاوى متلتلة.. شعر أن جدار المدخل ســـيحميه مـــن رصاصـــة طايشة تيجى من هنا ولا من هناك.. سمع الـــولاد بيقولـــوا: دول قناصة منتشرين على سطوح العماير المحاوطة للميدان.. تحطـــم السور الحديدي الذي كان يفصل بين المدخل والميدان.. عندما وجد نفسه رغمًا عنه وسط المعمعة، تلاشى الخوف مـــن الرصـــاص.. العمر واحد والرب واحد.. روحه مهما كانت عزيزة عليه، اتكسف من نفسه ومن الشباب اللى فاتحة سدرها ولا هاممها الرصاص.. لا

يعرف كم مرة ذهب بحمولته إلى المستشفى الميداني بجامع عمر مكرم.. على الرغم من فرار العسكر، ظلت الرصاصات الطائشة تخترق الميدان لتحصد تعس الحظ الذى يقع فى مجالها. مع بداية انقشاع الدخان تدريجيًّا، بدت الساحة تتضح ملامحها لعينه الكليلة، وكأنها الحرب.. أشلاء وجرحى وحجارة وأخشاب ومخلفات محال تحطمت واجهاتها، ودماء تسيل مختلطة بروبة المياه التى ملأت الميدان من مدافع المياه التى كانت أعلى عربات الشرطة الضخمة ذات التنك المعبأ بالمياه. مع هبوط الليل بدأ أهل الميدان حصر الجرحى والقتلى ومحاولة إسعاف من فيه رمق حياة بالجهود الذاتية المتاحة عبر المستشفيات الميدانية البدائية التى انتشرت حول الميدان بجهود تطوعية من الأطباء المشاركين فى الاحتشاد بالميدان، دون طلب سيارات الإسعاف التى كانت تدخل الميدان لحصد مزيد من الجرحى والقتلى، وتسليم من يقع فى قبضتهم للشرطة السرية التى انتشرت فى الميدان، وليس إسعافهم. بدأ الهدوء عند الفجر، إلا من بعض طلقات متقطعة وإن كانت كل منها بفورة، تصطاد من فورها أحد الرءوس المزروعة وسط الميدان، فترى الرأس المرفوع فى لمح البصر سقط على الأرض وسط نظرة مذهولة من رءوس مجاورة لها، فالتنشينة القادمة من على البعد كلعبة الحظ تنتقى عشوائيًّا تعس الحظ الذى يقع فى مجال

رؤيتها، فيتحول هذا الكم المتلتل من البلاوى والمشاكل والأحــلام والطموحات إلى رقم يسمى فى نشرات الأخبار" أحد المتظاهرين".. عاوده الخوف فعاد إلى موقعه ليحتمي بجدار المدخل، وقد ظل حاله على هذا المنوال طوال الأيام التالية. عرف أن الطرقات المتسارعة بالحجارة على حديد أسوار الميدان، معناه أن هناك خطرًا قادمًــا، ولسوء حظه فالخطر لم يكن يأتى إلا من الاتجاه المواجه لمخبئــه، ناحية عبدالمنعم رياض.. يدور دورته ويعود إلى مستقره سريعًا.. ينزوي في الركن، يتكلفت ليلًا في البطانية التي قــدمها لــه أحــد الشباب عند فجر اليوم الأول عندما رآه متربعًا في جلســته أعلــى السلم مسندًا ظهره إلى جدار الدرابزين شابك إيديه حوالين رجليــه وجسمه كله بيتنفض وهو بيحاول يدفى نفسه بفرك أفخاذه بكفــوف إيديه. يدور دورته فى الميدان ويعود ليجد البطانية فــى مكانهــا، كذلك عدة الشاى التى أعدتها له حفيظــة، بعــد زيارتــه الأولــى للاطمئنان عليها ليلة سبت الانفلات الأمنى، فمهمــا تركــت فــى الميدان فلا أحد يمد يده إلى ما لا يخصه.

ينظر منتصر إلى مدخل محطة المترو قبل أن ينعطف يمينًا فى اتجاه شارع قصر النيل، مكان جلسته المفضلة يحتله الآن أحــد الباعة الجائلين فاردًا فرخ أبلاكاش على برميل بلاستيك، من المؤكد

أنه يفرش بكروت الشهداء والأعلام؛ لأن منتصر رآه يلوح بأحد الأعلام فى يديه وهو ينادى على بضاعته.

عندما بدأ انتشار الخيام في الميدان، اعتاد منتصر على أن يدور دورته بنظرة فضولية متطلعًا على البعد.. كان نفسه حد يرسيه ع الدور ويفهمه إيه اللى بيحصل، وفجأة ليه العساكر بقوا زى اليهود اللى بيشوفهم فى نشرة تسعة بيموتوا الفلسطينيين؟ يا ما شافهم قبل كده بيجروا ورا الكام عيل اللى كانوا بيتلموا فى وسط الميدان أو عند الخارجية، وكان كبيرهم العصايا الكهربا اللى صحيح بتوجع لكن ما بتموتش.. كان يتمنى أن يدعوه الشباب إلى الجلوس معهم. من سنين وهو يراهم فى أوقات بعد خروجه من المحطة، فجأة يظهرون، عشرة.. عشرين.. يتلم عليهم الأمن وينزل فيهم ضرب، وهو يقول لنفسه: والله العيال دى مجانين، فاكرين نفسهم هيغيروا الكون، دا مُلك ومنظمه صاحبه وليه حكمة إنه يبقى مايل كده، يتذكر إهانات المشرف له، فيردد لنفسه: " إحنا أصلًا اللى وحشين مع بعض". دنيا وعالم كأنهما حلم، وكأننا مش في مصر.. كل دول اتجمعوا إزاى؟.. يرى لأول مرة عودًا بحق وحقيق، ينكفئ عليه شاب أعمى ولكنْ مورد بالحياة، يضرب بالريشة على الأوتار ويغنى ودائرة ملتفة حوله تردد خلفه: " مصر يا امه يا

بهية.. يا أم طرحة وجلابية.. الزمن شاب وإنتى شابة.. هو رايح وإنتى جاية". يسترجع صورة أمه وهى منكفئة على طشت الغسيل النحاسى المزنجر، تدعك ملابسهم المتقيحة والمهترئة وتجلس في المساء تبحث بين بناتها عمن تلضم لها الإبرة لتعالج الخروق والفتحات المنتشرة في الملابس.. يتأمل الشباب المنهمك فى رسم وتلوين حروف متشابكة لا يفهم منها شيئًا.. جماعات من شباب وفتيات صغار السن يحملون يفطًا ضخمة ويرددون بصوت صارخ ما زال يحمل سرسعة الطفولة: "عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية". يرى صورًا تسخر من الرئيس، فيضحك على شكل الرسوم.. "تلاتة بالله عيال رجالة.. جريئة".. يتلفت حوله خجلًا من أن يضبطه أحد متلبسًا بالضحك سخرية من الريس، سبحان مغير الأحوال.. يوم ما شاف منظر زى ده من كذا سنة فاتوا عند تمثال طلعت حرب قال عليهم: مجانين رسمى.. كانوا يا دوب متين تلتمية، وكان أول مرة فى حياته يسمع حد بيقول: " يسقط يسقط حسنى مبارك"، إزاى الميتين تلتمية بقوا الخلايق دى كليتها، وبيقولوا النهاردة نفس الكلام؟ كان مطيعًا لأبيه ولكل من يماثل أباه فى السن.. لم يفكر مثلهم فى حاجته لتغيير الرئيس.. يرى حاله مسألة قدرية لا علاقة للرئيس بها.. بكى مع كل أهل قريته يوم وفاة عبد الناصر.. شحنه المعلم حسونة مع عشرات من أبناء القرية

للبندر فى العربة النقل، الشهادة لله ماحدش غصبهم، وشاف بعينيه وهو محشور على حافة العربة، عشرات من الرجال كبار السـن، يستحلفون المعلم حسونة وهم يبكون كالأطفال؛ ليشحنهم للبندر ومن هناك هيتصرفوا، وهو يشير إلى العربة ويقول لهـم: "فـين؟ لـو تعرفوا تركبوا، اتصرفوا"،ومن البندر كانت القطارات مجانية بـس ولا يوم القيامة، فاتسطحوا على القطار المتوجه لمصـر وانحشـر وسط طوفان البشر، بكى مثلهم وسرح فى شوارع القاهرة النظيفة المسفلتة المليئة بمحال الأكل والشرب والحلويات والمقاهى، يـوم بليلة نام فيها على رصيف باب الحديد وكانت الناس حنينة، عطفت عليه بقروش أكل بيها ساندوتشات فول وطعمية وأكل كشرى للمرة الأولى فى حياته وحلَّى برز ولبن، وشرب سوبيا؛ هذا المشـروب الأبيض اللى طعمه ألذ من اللبن. رجليه خدته لباب اللوق والعتبة، ورجع لباب الحديد وقبل ما يركب القطر، جاب بباقى اللى كان فى جيبه صوابع السمسمية اللى بتحبها أمه وصوابع الملبن لأبوه أبـو سنان مخلعة، وخواتم وغوايش بلاستيك ملونة وحلقان فالصو بتبرق زى الدهب، لإخواته البنات، ورجع مسطح فـوق القطـر عشـان مامعهش فلوس، وخد عهد على نفسه إنه تو ما يكبر هيجيب أبـوه وأمه وإخواته ويعيشوا فى مصر فى النضافة. بكى مثل كـل مـن حوله دون أن يعرف سببًا للبكاء، لكنه عرف أن الـريس كـالأب

يستحق البكاء عليه عند الوفاة، ما هو شايل همنا وظروفنا وحشة، كفاية إنه قادر يأكلنا.. ما حدش فى مصر بينام من غير عشا.. لأ.. يا ما نام ليالى كتيرة من غير عشا، وياما أيام كان أشهى عشا ياكله رغيفين حاف يغمسهم بحبة ملح ويبلعهم بشوية مية، ويا سلام لما يحبس العشوة دى بكوباية الشاى، يحس إنه سلطان زمانه.. عند اغتيال السادات، لم يبكِ ولم يبالِ.. ربما فرق النضج، ولكنه كان أكثر مشغولية فى البحث عن لقمة العيش التى تأتى بطلوع الروح.. تجذبه بعض المناقشات، يتقدم أكثر.. لا يفهم كثيرًا مما يدور حوله، فقط مينا هو الذى كان يفهم منه. يشعر أنه دخيل والعيون تتطلع إليه بريبة وأحيانًا بتأفف من هيئته فينسحب إلى موقعه عند مدخل المحطة، لا يشعر أنه جزء من هذه الجموع إلا وقت الصلاة التى كان يتردد صداها فى الميدان خمس مرات فى اليوم، يترك ركنته ويزاحم فى الوصول إلى الصفوف الأمامية.. يتذكر كلمة شيخ الزاوية: "أسنان المشط"، لا يشعر أنه إحدى أسنان مشط الميدان إلا وقت الصلاة.

ينزوي منتصر في ركنته، على الرغم من وحدته والبرودة التي تتخلل عظامه ليلًا، يتشبث بمكانه ويرفض العودة إلى البيت.. يترقب شيئًا كبيرًا سيحدث هنا سيغير حياته: " الظاهر حلمك

هيتحقق يابا ".. ما هو أبوه كان معشمه بلبن العصفور، عشان البشاير اللى هلت معاه يوم ما اتولد: "ما هو إنه ييجى في اللحظة المباركة دي يبقى ربك بيدبر التدابير.. سبحانه قادر على كل شيء".. خمسة وخمسين سنة مستنى اللحظة المباركة اللى كان شايفهاله أبوه لمستقبله، وخلته يسميه منتصر، منتصر يحدث نفسه بصوت أقرب إلى الهمهمة وهو يتخبط فى الناس عائدًا إلى ركنته: "منتصر يا با.. طب كنت سميتنى موكوس.. منحوس.. أى حاجة إلا منتصر.. الكلام المتنتور هنا وهناك يقول: والله باين هتشوف العز والفخفخة يا منتصر قبل ما تسيب الدنيا.. ما هو حقنا ناكل أكلة حلوة ونومة نضيفة ومستشفى نروحها ببلاش لما نكون عيانين".. كلمات والده التي كانت مثار سخرية أفراد الأسرة خاصة مصباح: "إحنا جرابيع ولا نسوى نكلة.. وهنعيش جرابيع ونموت جرابيع.. صدعت دماغ أمنا بحكاية ابنك الحيلة.. دين أم دي عيشة وعيلة مجنونة". كان مصباح ناقمًا على كل شيء وفى أول فرصة هج لأفغانستان: " طول السنين اللى فاتت وكلمتك بترن فى ودانى يا مصباح، وحاسس إن انت اللي صح، جرابيع يا بنى أى والله صح.. ما شفتش الواد المشرف ابن الجزمة واللى بيعمله معايا؟ بس النهاردة لأ الدنيا هتتغير، أى والله هتتغير يا مصباح وأبوك هو

اللي كلامه صح.. فينك يا مصباح تيجى تشوف الخلايق دى كليتها، عينيها فتحت وبتقول بعلو الصوت: عايزين حقنا ":

"ولابد من يوم معلوم / ترتد فيه المظالم
أبيض على كل مظلوم/ أسود على كل ظالم".

كانت أمه التى لا يذكر صورتها إلا متشحة دائمًا بالسواد ترددها بأسلوب غنائى حزين أقرب إلى ندب النادبات وهى تضع "مصباح" فى حجرها وتهزه بحركات إيقاعية تتماشى مع اللحن الجنائزى حتى يغط فى النوم، قبل عودتهم يستأذن المعلم حسونة فى أن يعطيه يوميته ويمهله حتى يذهب إلى سوق البندر يجيب حاجة أمه طالباها منه، ويشترى من يوميته صوابع الحلاوة السمسمية التى تحبها أمه وصوابع الملبن لاجل أبوه اللى سنانه اتخلعت بدرى بدرى، يلقى لفة الحلوى فى حجر أمه وهو يتطلع إليها ويمنى نفسه بأن يكون هو بطل هذا اليوم المعلوم ويرد المظالم عنها ويجعلها تبتسم؛ هذه الابتسامة التى انتظر أن يراها على وجهها ولم يرها حتى مماتها، حتى فرحه اللى كان قعدة ع الضيق فى بيت خال حفيظة واللى بعدها خدها بهدمتها وسبتين فيهم حتتين غيار وحتتين مواعين وزوادة يومين تلاتة وطلع على مصر، لم تخلع أمه السواد

ولم تبتسم.. عند فجر اليوم الأول، تطلعت إليه الطبيبة بانبهار وقالت له: "إنت بطل يا شيخ منتصر".. يتلذذ بسماع كلمة شيخ تسبق اسمه، هذه الكلمة التى اقترنت باسمه مُذ أطلق لحيته منذ عدة سنوات.. تغيرت معاملة الجميع له بعد اللحية إلا المشرف المفترى ابن الحرام، حتى ولاد الحارة الشبيحة اللى بيدوروا ليل ونهار يتحنجلوا ويشاكسوا فى خلق الله، بقوا بيردوا على سلامه بأدب، ويقولوله: اتفضل يا شيخ.. هل وجوده هنا لحكمة لا يعلمها إلا الله؟ أنقذ حياة بعض ممن كان من الممكن أن يُداسوا تحت الأقدام مع وقع الزحام وفوضى التدافع؛ هربًا من رصاصات الشرطة ثم البلطجية: "بعد ما وصلت للسن ده يا منتصر.. باين عليك هتعيش لحد ما تشوف الحياة اللى بحق وحقيق".. العدل اللى كانت بشايره هالة يوم ما تولد على رأى أبيه.. "الله يرحمك يا با".

يراقب المشهد من حوله وكأنه يشاهد شاشة تلفزيون عملاق.. بعد مساء السبت الذي كان يطلق عليه مينا سبت الرعب والذي أعقب جمعة الغضب، اطمأن منتصر على حفيظة وأن الدنيا أمان في الطالبية باللجان الشعبية التي نظمها شباب الحي.. استقبلته حفيظة استقبال الأبطال وحس إنه لأول مرة مالي عين مراته، حكى لها عن البنت اللى كان الهلف بيزَّحفها ع الأرض وهو جاررها من

شعرها وإزاى أنقذها من بين إيديه، بضربة الجاروف على نافوخه، لولا صباعه المقطوع كان وطى ع الأرض وخطف الطبنجة اللى وقعت من حزام الهلف وفرَّغها فى دماغه.. كان نفسه يحكى لها عن أحمد اللى حس إنه ابنه اللى كان بيترجاه من الدنيا، بس ساعة ما افتكر جايته عليه يستنجد بيه، عينيه رغرغت بالدموع فخاف يحكى لتتنزل دموعه وهو بيتكسف لو دموعه نزلت قدام أى حد ولو حتى حفيظة.. حكى لها عن الغاز اللى بيخنق والشبورة اللى بيعملها، واختراع الولاد للخل والبيبسى، والعربيات اللى كانت بتطلع فوق الرصيف تدهس العيال.. حكى لها عن الشباب اللى كان بيتسقّط وسط الميدان وكأنه دبان: "طلقة ما تعرفيش جاية منين ولا رايحة فين": " يا لهوي" خرجت الصرخة من حفيظة مع شهقة وهى تتطلع لزوجها مذهولة، فقرأ فى عينيها إنها مش مصدقاه، فعاود التأكيد بأيمانات الله: " أى والله يا حفيظة، دا ولا الكفرة اللى بتشوفيهم فى التلفزيون بيضربوا العيال بتوع الانتفاضة".. حكى لها عن الدكتورة اللى قالت له: إنت بطل، لكن لم يجرؤ على أن يحكى لها عن انكماشه فيما بعد فى ركنته محتميًا بدرابزين المدخل وإن اللى حازز فى نفسه إنه هو اللى عاش كام وخمسين سنة، كان جبان وخايف على عمره والعيال اللى لسه فى أول الطريق ولا راحت ولا جت وشكلهم ولاد ناس بحق وحقيق وأهاليهم صارفة

على تربيتهم وعلامهم دم قلبهم، بيقابلوا الرصاص بسدرهم؛ ربما لهذا السبب كان إصراره ألا تنزل معه الميدان.

ــ خد بالك من نفسك يا خويا، دى الدنيا هناك خطر أوى، أنى شفت اللى بيحصل عند خيرية ع الوصلة على قناة الجزيرة، ما صدقتش إن إحنا فى مصر.. دى باينها حرب يا خويا.
ــ ربك هو الساتر يا حفيظة.
ــ يا خويا أنى ما ليش غيرك وإحنا ما لناش دية، ما حدش هيسأل فينا.
ــ دا كان زمان يا ولية، لو شفتى اللى شفته كنتِ هتعرفى إن الدنيا هتتغير يا حفيظة.. أى والله، كل اللى بأقولهولك ده ما كانش بيهز شعرة فى راس الولاد.. لو تشوفى الميدان تقولى يوم الحشر.. الناس دى مش هترجع بيوتها إلا لما تجيب العدل:" عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.. عيش .. حرية.. كرامة إنسانية".. يرددها بحماسة مكتومة مقلدًا الشباب، رافعًا قبضة يده فى الهواء ملوحًا بها، مع ابتسامة خجلى جعلته يرددها بصوت خفيض وكأنه يخاف أن يسمعه أحد، وهو يرددها وحفيظة تضحك على منظره:
ــ مانى شفتهم فى التلفزيون، كانوا بيعملوا زيك كده بالظبط.

ــ ياه يا حفيظة، هنعيش لما نشوف الخير بيعم ع الغلابة اللى زى حالاتنا أى والله.

ــ واحنا عايزين إيه يا خويا، لا عيل ولا تيل ورايحين مش جايين.

ــ عايزين نعيش بنى آدمين يا ولية فى اليومين اللى فاضلين لينا.

ــ طب آجي معاك.

ــ لأ، دا شغل رجالة.

ــ ما ني شفت عند خيرية ستات كتيرة هناك، وعيال كده بنات صغيرة من بتوع المدارس.

يحاول منتصر استرجاع صورة فتيات الميدان صغيرات السن، يدهشه أنه وهو المهووس بالمؤخرات، لا تستقر فى رأسه صورة من هذه الصور التى كان يحشو بها رأسه مع عودته إلى البيت، زاده اليومى الذى يخرج به من ساعات الحنجلة داخل المحطة.. محصلته الجديدة تكوينات هلامية شفافة تتكثف لتتحول إلى حشد هائل من العيون السوداء الواسعة المفتوحة عن آخرها، وتحتل صدارة المشهد عينا هذه الفتاة السمراء، ذات الشعر الهايش.. تتناثر قطع بيضاء مخلوطة بتكتلات الدم المتخثرة التى انقلب لونها إلى الأحمر الداكن فى العمق والسواد على الأطراف، بجوار شظايا عظام متناثرة من الجمجمة المتفرتكة.. العينان تحدقان

فى وجهه.. صرخة فزع مرعبة هى آخر ما عبرت به العينان عن وعيهما قبل الغياب، يؤنب نفسه أنه وقف أمام المشهد عاجزًا عن أى فعل.. لا، فهو حتى قد اجتازه سريعًا ولم ينطبع فى رأسه إلا فيما بعد، فقد كان بجوارها هذا الصبى المهووش الشعر المغمض العينين بسرسوب الدم المنساب من جانب فمه، اجتازها متفاديًا الخوض فى قطع المخ المتناثرة وصولًا إلى الصبى، فقد شعر أن فى انتفاضته بقايا حياة أجدى بإنقاذها.

منتصر بحركة لاإرادية يمد إصبعه أسفل النظارة سيئة الصنع مشروخة العدسة اليسرى، يمسح بإصبعه دمعة تنساب يتهرب دومًا من الاعتراف بها، فيردد كمن يزيح عن نفسه اتهامًا:

ــ مش عارف إيه ده؟ باين فيه حاجة طرفت عينى يا ولية.

يكتشف أنه قد غاب بعيدًا عن حفيظة التى تتفحص وجهه للتعرف على ما يخفيه، يتذكر أنها كانت تسأله عن البنات فى الميدان، فيواصل الحديث وكأنه لم ينقطع:

ــ بنات صغيرة يا ولية، البنت فيهم بميت راجل أى والله، لكن إنتِ خلاص مش حِمل خبطة ولا لطشة هوا تُرْقد في جتتك، البرد بالليل هناك رصاص يا حفيظة، وإنتِ أصلًا مفاصلك مش خالصة، وأما

بتخرجى معايا بتمشى تجرِّى رجليكِ جر عشان تلحقينى، خلاص يا حفيظة بقيتِ عضمة كبيرة.

ــ وانت يعنى يا خويا اللي صغنن؟

ــ أنى راجل يا ولية وكلمتى تمشى عليكِ، وأنى قلت هتفضلى هنا.

ــ طب خليك للصبح ما تمشيش فى الحظر، النهار له عينين.

عملت له شوربة عدس وحمصت له العيش فى حتة سمنة بلدى محوشاها من آخر سفرية ليهم للبلد، وجابت راكية النار وحطتها فى وسط الأوضة ورمت فيها شوية فحم مش خشب، كانت عيناهم تحت السرير للطوارئ والبرد الشديد، وحطت البراد الكبير ع الراكية.. قعدت جنبه ع الطبلية وقعد يحكى لها كل اللي شافه ويعيد ويزيد وهى عارفة مزاجه بين نص ساعة والتانية تلحقه بكوباية الشاى، لحد ما شقشق نور الفجر خد بعضه ونزل للميدان.. في المرة الثانية كان فايت من جنب قهوة شكري اللي ع الناصية وسمع الريس وهو بيقول: " .. فيها عشت، ومش عارف إيه، وعلى أرضها أموت".. قبل ما يوصل للحوش سمع صريخ، رجع تانى للشارع لقى شباب الحارة البلطجية خارجين بسنج وشوم وسيوف وعمالين يقولوا: "العيال الخولات اللي في التحرير دي لازم تتربى".. فتح التلفزيون شاف ميدان غير الميدان وناس غير الناس:

"يا ليلة سودا.. هى الناس راحت فين يا ولية؟.. الراجــل الظــاهر بلفهم بالكلمتين بتوعه دول.. الظاهر كله رايح على فاشــوش يــا حفيظة".. جلس يترقب أذان الفجر حتى يعود إلى الميدان.. فتشــت حفيظة شنطته البلاستيك السوداء وأعادت ملء محتوياتهــا، ففــى المرة الأولى التى زارها عقب انطلاق البلطجية يوم سبت الرعــب وذهابه للاطمئنان عليها، أعطته حفيظة سبرتاية وزجاجــة ميــاه بلاستيك من الزجاجات التي كان يجمعها لها من المحطة لتخــزن فيها المياه التى لا تأتى إلا نصف ساعة بعد الفجر، تصــطف فــى طابور سكان الحوش لتخزين حاجتها من مياه اليوم مــن الحنفيــة الوحيدة الموجودة بحوش البيت.. تبرم له قرطاسي شاي وســكر، وبرادًا قديمًا على أد كوبــايتين، وكوبــايتين صــاج عشــان مــا يتكسروش، وملت السبرتاية النحاس اللى ورثتها عن أمهــا بــنص إزازة السبرتو اللى عايناهم للطوارئ، ماهى كيبفة شرب قهــوة ع السبرتاية، لفتهم فى شنطة سودا. فى زيارة السبت لبس اليونيفورم الاحتياطى وترك لها المتسخ، كان يظن الأمر لن يطــول ويمكــن على بكرة يتحقق المراد والريس يلم الدور وينشر العــدل وتفــتح المحطة على طول، أما هذه المرة وتحسبًا لطول القعدة، فقد ارتدى البنطلون الجينز والقميص الكاروهات والبلوفر التريكو، ووضــعت له اليونيفورم النظيف بدال اللى خلعه تحسبًا لاحتمال فتح المحطــة

فى أي لحظة، فحطت شنطة عدة الشاى فى شـــنطة ســـودا أكبـــر ودفست وسطيهم اليونيفورم وإزازة المية الكبيرة، وقالت له وهـــى تتصنع الانهماك فى ترتيب محتويات الشنطة متحاشية النظر إليـــه وكأنها عيبة:" عارفاك ما تقدرش تقعد نص ساعة من غير كوبايـــة الشاي.. ارجع لى بالسلامة يا خويا أنى ما ليش حد فى الـــدنيا دى غيرك، ها خد إيه لو عم الخير ع البلد وانت مش معايـــا؟". بـــس شافت عينيه بتبرق بالفرحة وكأنه عيل صغير فى المدرسة طـــالع رحلة.

ـــ دا يا حفيظة تمثال طلعت باشا حرب.. أكيد طبعًا يا وليـــة مـــا تعرفيش مين هو طلعت حرب؟

حس بالعظمة فى نفسه وهو شايف البلاهة علـــى ملامـــح وش حفيظة واتنحنح وكأنه خطيب فى جـــامع، وبـــدأ يســـتعرض عضلاته على حفيظة من المعلومات التى كان يخبره بها مينا:

ـــ ده الراجل اللى بنى مصر يا حفيظة، وعمل اقتصاد حـــر أيـــام الإنجليز.. عماله تهزى فى راسك زى البهيمة ووالله ما انتِ فاهمة حاجة.. عارفة يعنى إيه اقتصاد يا ولية؟ يعنى خلانا ما نتحـــوجش للإنجليز، رغم إنهم كانوا محتلينا.

ــ يا سلام يا خويا، فاكرنى جاهلة ولا إيه؟.. طبعًا عارفة اقتصاد، يعنى عمل بنك مصر، ماحكايته جت فى تمثيلية أم كلثوم، حتى بالأمارة عمل لها فيلم.

ــ والله براوة عليكِ يا بت، أهو هنا بقى وجنب تمثال الباشا ده كان اتقبض علينا يوم الجيلاتى إياه.. هربنا من ناحية العبد بتاع الجيلاتى اللى هناك دهو والعساكر كانوا محاوطين الولاد بتوع كفاية، فاكرة كفاية يا ولية؟ الشباب اللى قلت لك عليهم إيامها إنهم أول ناس يقفوا كده فى وش حسنى مبارك ويحطوا إيديهم كده فى وشه ــ ورفع كفه اليمنى وأصابعه الخمس فى وجهها ــ ويقولوا: كفاية عليك بقى. هنا حوالين الصينية دى تو ما هربنا م الانفجار وجرينا على هنا، فتحوا لنا سكة وضمونا للولاد وهيلا بيلا شحنونا كلنا فى العربيات الكبيرة.. هنا هو فى الحتة دهى بالظبط.

يبتسم.. للمرة الأولى يتذكر مينا ويبتسم، فعندما حكى لمينا عن موضوع الجيلاتى، أخبره مينا أنه كان ممن شحنوا معه يومها، لكنه كان من العيال بتوع كفاية اللى هو بيقول عليهم: كانوا مجانين، فما خرجش مع مجموعة الآيس كريم لكنه شرف فى الحجز شهرين قبل ما يخرجوه، خدوه كعب داير على كل أقسام

الجمهوريه؛ بحجة يشوفوه هربان من أحكام ولا حاجـــة.. الأيـــام القليلة التى اعتاد فيها على جاية مينا عليه كل صباح تتمـــدد فـــى ذاكرته وتتحول لعمر بحاله، فعندما يتذكره الآن يشعر وكأنه كـــان يعرفه منذ سنوات طوال.

اعتاد بعد يوم التعارف الأول أن يأتيه مينـــا كـــل صـــباح بساندوتش الإفطار ويجلس بجواره.. فول مدمس بيتى فى عـــيش بلدي، فول معمول بمزاج يذكره بفول أمه اللى كانت بتبيته علـــى رماد الكانون.. أخبره مينا أنه يعشق العيش البلدي: " يا سيدى عليه كده وهو طالع م الفرن من إيدين فران عاجنه بمزاج ومديله حقـــه فى الخميرة. كنت وأنا صغير قبل ما أوصل البيت أكون كلت منه رغيفين حاف وآخد علقه م الست تريزا؛ لأني مشيت في الشـــارع وأنا باكل العيش حاف قدام النـــاس.. النـــاس تقـــول علينـــا إيـــه جعانين؟".. كان قد بدأ بالأمس محاولة تعليمـــه مبـــادئ القـــراءة والكتابة: " نفسى أتعلم أقرا وأكتب الكلام ده يا باشمهندس". بالأمس طلب منه منتصر هذا الأمر، وكانت استجابة مينا فورية ومرحبة: " عندك حق، بدال ماتسألني على كل يافطة ودي فيها إيه ودى بتقول إيه، نستغل اصطباحة كل يوم دي وأديـــك حصـــة لمـــدة ســـاعة وهنتدرب عملي على اللوحات دى"، ثم بحركة استعراضية يخـــرج

من حقيبته كشكولًا ضخمًا ومن جيبه قلم رصاص، ثم وهو يقدمهما لمنتصر:" وآدى يا معلم أول كراسة وقلم فى حياة التلميذ منتصــر عبد الفتاح مصباح الزينى بعد الثورة.. الأول قلم رصاص عشــان الشطب الكتير، من جيب البنطلون يخرج أستيكة: "ما نسيناش حاجة يا معلم وآدى الأستيكة، وساعة التخرج ليك يا عــم عنــدى قلــم يونيبول زى ده". منتصر تهف عليه سيرة والده: " الله يرحمك يــا با.. روحه طالبة الرحمة".. يتذكر ثورة والده العارمة عندما أخبره عن دروس محو الأمية الليلية التى كان ينظمها لهم الشــاب أحمــد الذي كان يصفه كبرات البلد بالشيوعي وحلفان الأب طلاق تلاتــة بألا يتعلم على يد هذا الزنديق اللي هيخسره آخرته؛ وكل هذا لأنه تجرأ وناقش مع والده ما ناقشهم فيه أحمد عــن حــرب أكتــوبر وموضوع الملائكة التي كانت تحارب بجوار المقــاتلين: " كنــت هتقول إيه دلوقتى يا با لو عرفت إني هتعلم على إيد نصراني؟ بس والله باين عليه طيب وابن حلال.. ما يعيبــوش بــس غيــر دقــة الصليب دى.. يلا أمر الله.. ربنا يهدى.. ما هو بس برضــه هــو ذنبه إيه؟ ما هو اتولد لقى نفسه كده.. يعنى لو أنى كنــت مكانــه وطلعت لقيت أمى اسمها تريزا وأبويا ميخائيل، كان اسمى هيبقــى مرقص يا بطرس.. لأ لأ، استغفر ربك يا منتصر.. الحمد لله على نعمة الإسلام.. هيه، مُلْك منظمه صاحبه".. أكثر من مرة فكــر أن

يسأل مولانا شيخ مسجد نصرالدين: هو ينفع يترحم عليه ويقرا له الفاتحة، ما هو ما شافش منه إلا كل خير، ما هو مش على ملتـــه يعنى كافر، طب هو هيحتسب عند ربنا شهيد زيه زى المســـلم؟.. يتذكر كلمة أمه الأثيرة: "ربك رب قلوب". سمع كتير من مولانا إن مش مفروض حتى يلقى على النصرانى الســـلام ولا يعاشـــره ولا يعامله، بس برضه قرا الفاتحة سوا كانت هتنفعه ولا ما هتنفعوش.. عمل اللى يريح ضميره.

منتصر يتطلع إلى التمثال من على البعد ويتأمـــل الورقـــة المتدلية من بين يدى طلعت باشا حرب، والمنحوتة مـــن الحجـــر، ويسأل نفسه: " يا ترى الورقة اللى فى إيد الباشا دى كان مكتـــوب فيها إيه؟" لو كان الباشمهندس مينا هنا كان دله وفهمه، يتقدم إلـــى الأمام أكثر مخترقًا الزحام حول قاعدة التمثال، وحفيظة من خلفـــه تمسكه من وسط الجلباب الأبيض المخصص ليـــوم الجمعـــة ـــــ وتفاديًا لبرودة فبراير فهو يرتدى تحته الفانلة الصوف والسروال ــ مع تدافع الزحام تتشبث حفيظة بوسط الجلباب كى لا تتوه منه فـــى الزحام وهو يتقدم مفسحًا لنفسه سكة وسط الزحام بيديْه، حتى يصل إلى السلاسل المحيطة بقاعدة التمثال فيقفز لتخطيها وهـــى خلفـــه، يصل إلى القاعدة، يتطلع إلى أعلى، الورقة ليس بها كتابة، تلاحظ

حفيظة نظرته المثبتة على الورقة المتدلية من يدى التمثال فتعاجله بصراخ قرب أذنه ليسمع صوتها:

ــ دى يا خويا أكيد العقد بتاع ملكية البنك.

ينظر إليها منتصر بدهشة واعجاب:

ــ كانت فايتة عنى دى إزاى؟ واللهِ عندك حق يا ولية.

يبدأ منتصر فى الدوران حول الجدران الرخامية الأربعة التى تشكل قاعدة التمثال، يلتفت لحفيظة ويرفع صوته لتسمعه وسط ضجيج هذا الزحام:

ــ تحبى يا بت أقرا لك اللى مكتوب ع الرخامة دى؟

ــ وإنت يا خويا من إمتى بتعرف تقرا؟

ــ طبعًا باعرف أقرا، أمال جاهل زيك يا بت؟ قربى شوية وأنى أوريكى.

بدأ يستجمع تشكيلات الحروف التى علمها له مينا ويسترجع منطوق كل حرف، وبدأ بالجدار الأسهل الذى يحوى اسم طلعت حرب وتاريخ ميلاده:

ــ محححححححمد طلعت حرب.

توقف فى البداية عند محمد، وبعدها أكمل الاسم بالفكاكة.

ــ واللى تحت الاسم ده، هو اتولد سنة كام، الأول بالهجرى.. أهو .. هجرية، الأرقام بقى بتعرفى تقريها، ما انتِ فى عــد الفلــوس لبلب، واللى تحتها دى طبعًا التاريخ الميلادى، وقضى أكثــر مــن ساعة وهو يعذبها معه فى محاولة قراءة المكتوب على الجوانــب الأربعة، يبدأ بكلمة ويحاول من أول حرف بكل كلمة تالية استنتاج منطوقها بالمفهومية.

ـ ٣ ـ

صحف صباح السبت ١٢ فبراير ٢٠١١ :

الأهرام:

ـ الشعب أسقط النظام.

ـ المجلس الأعلى للقوات المسلحة يتولى إدارة شئون البلاد.

ـ ثورة الشباب أجبرت مبارك على الرحيل.

ـ المصريون يحتفلون حتى الصباح ابتهاجًا بالانتصار في أول ثورة شعبية في تاريخهم المعاصر.

أخبار اليوم:

ـ ورحل مبارك.

ـ قواتنا المسلحة: أنا الشعب.

المصرى اليوم:

ـ إن مت يا أمى ما تبكيش.. أموت عشان بلدى تعيش.

ـ الشعب أراد وأسقط النظام.

الدستور:

ــ أخيرًا تنحى.

ــ الجيش يتعهد بإدارة البلاد.

الشروق:

ــ وانتصر الشعب.

ــ الثورة أسقطت مبارك، والمجلس الأعلى للقوات المسلحة يتولى الحكم.

ــ أول هتاف بعد نجاح الثورة: ارفع راسك أنت مصرى.

الجمهورية:

ــ وانتصرت ثورة يناير.

ــ مبارك يتنحى والجيش يحكم.

منتصر فى طريقه إلى المحطة شاهد بعض الجنود يحيطون بجموع الشباب المتمسكين بخيامهم، والجنود بغشـــومية يجمعونهـــا ويدوسونها بالبيادات مع ركلات فى البطن والصدر للشباب الرافض الخروج منها.. شاهد زجاجات البنزين تلقى على الخيام.. تشـــتعل النيران، والجنود على أطراف الخيام من الجوانب يشدون حبالهـــا ليسووها بالأرض على من فيهـــا بنيرانهـــا، والـــولاد يخرجـــون مفزوعين لا يصدقون جدية التهديد الذى انطلق مهددًا بـــأنهم لـــو ماخرجوش هيولعوها على أدمغتهم.. جنود غير الجنود اللى شافهم فى التلفزيون بيتصوروا وسط العيال وهما بيضـــحكوا، وبيشـــيلوا العيال الصغيرة يقعدوهم جنبهم ع الدبابات ويبوســـوهم والأهـــالى فرحانين بولادهم اللى بيتصوروا مع الدبابات وأبطـــال الجـــيش.. يجرونهم تزحيفًا على الأرض.. لم يفهم منتصر سر كل هذا الغل، فبعد تفكيك الخيام يدوسها الجنود ببياداتهم وكأنهم بيفطسوا حشـــرة فيها الروح ويغرسون فيها سناكى البنادق للتأكد من تمـــام موتهـــا وكأنها هتصحى وتنصب نفسها تانى لو سابوها على حالهـــا، ثـــم يلقون بالقطع الممزقة والمحترقة فى عربات الزبالة.. البعض الآخر منهمك بالنزول بعصيانه على أدمغة الشباب.. سَمِعَ بعض الطلقات النارية تدوى فى الميدان وصوتًا أجش غاضبًا عبر مكبر الصـــوت يصرخ:" دلوقتى فى الهوا وبعد كده فى المليان".. على غير العادة

لم يكن حريصًا على حبس دموعه أو مسحها سريعًا بكم اليونيفورم قبل أن يراه أحد وهو يبكى، فوقف ينهنه ويبكى بصـــوت متقطـــع كالأطفال، على الرغم من أنه لم يكن من أهلها، كان يرقبها بعـــين فضولية على البعد من جلسته علـــى مـــدخل المحطـــة.. تصـــله أصواتهم.. ضحكاتهم.. أغانيهم.. يشعر بالونس الذى يملؤه دفئًا فلا يشعر بقرصة برد الشتا اللى بتنزل ساعة الفجرية: " المولد اتفض وعوضنا على الله.. حسبى الله ونعم الوكيـــل.. حســـبى الله ونعـــم الوكيل "، ظل منتصر يرددها لنفسه وهو يخبط كفيـــه ببعضـــهما طوال الطريق من منتصف الميدان وحتى هبوطه درجات السلم إلى داخل المحطة.

نزل المحطة منكس الرأس.. العساكر ع البيبـــان بيمنعـــوا الناس من النزول وبيقولوا لهم إن المحطة هتفتح الجمعة الجايـــة، سمحواله بالدخول لما شافوه لابس اليونيفورم وشافوا الكارنيه اللى بيقول إنه عامل بالمحطة.. تناول أدواته وركنها بجـــوار الجـــدار وأسند ظهره كتمثال بلا حراك، خانته قدماه سريعًا، تنسحق لأسفل، ينزل تدريجيًّا بجسده الملتصق بالجـــدار، يتخـــذ وضـــع الكاتـــب المصرى الجالس القرفصاء فينظر إليه العابرون وكأنه أحد مدربى اليوجا مستغرق فى أحد تدريباته، فقد تحول إلى تمثال جامـــد بـــلا

حراك.. عاد العمال اليوم لإصلاح البرواز.. يراقبهم علـــى البعــد بعين جامدة لا تتلهــف ولا تنفعــل.. لأول مــرة لا يشــغل بالــه بالمشرف.. يتمنى أن يأتى ويراه هكذا وهو لا يعمل، لن يتصــنع أداءه لعمله، يحملون المولود الأشقر الجديد بين أيــديهم وبحــرص بالغ يقومون بتثبيته داخل الإطار، بعد تمام التأكد من أنــه يحتــل موقع الصدارة من البرواز.. رأى المشرف آتيًا من على البعــد.. النفخة القديمة ذاتها وكأن لا حصل ثورة ولا يحزنون، ظل متشبثاً بمكانه وبجلسته القرفصاء ملاصقًا الجدار وإن مــد يــد لاإراديًّــا وأمسك أدواته جاعلاً إياها فى وضع الاستعداد.

ــ إيه يا ثورجى الآيس كريم؟ صدقت نفسك المرة دى وهتعملى فيها ثورجى بجد؟ عندك حق ما هو البلد كله بقى ثورجية بين يوم وليلة، هتيجى عليك إنت؟ هه نبتدى المزاد بخصم أســبوع، طبعًــا مش هتفرق معاك، هييجوا إيه الكام ملطوش بتوع الأسبوع جنــب القبض بالدولار؟ هو بالدولار برضه، ولا كان يورو يا مولانا؟

مع سخونة المناقشة من طرف واحد وانتفاخ عروق رقبــة المشرف حتى كادت أن تنفجر بسبب تجاهل منتصر:

ـ قوم فز ورد عليَّه زى ما بكلمك يا حيوان.. لازم تعرف إنـــك حشرة، بجرة قلم من إيدى أمسحك من ع الوجود، وخلى ديـــن أم الثورة تنفعك.. لما جربوع زيك يشترك فيها تبقى مش ثـــورة، دى تبقى فوضى.

استند منتصر بتكاسل إلى ذراع الجاروف، وبدأ النهـــوض ونظرة تحقير ساخرة ترتسم على وجهه فى مواجهة وجه المشرف المحتقن بالدم.. سمع كلمات كثيرة دخلت من أذن لتخرج من أذن، ولكن عند كلمة فوضى لم يتمالك منتصر نفسه وكان لابد مـــن رد فعل حاسم، لا يدافع به عن نفسه بل عن كل هذا الدم الذى تشربت به ملابسه، ويأتى هذا الجربوع ليهدر كل هذا الدم فى التراب:

" سلمى لى ع الولاد السمر
خُضْر العمر
فى عموم الحوارى
سلمى لى ع البنات
المخطوبين فى المهد
لسرير الجوارى
واسأليلى بالعتاب

كل قاري فى الكتاب
حد فيهم
كان يصدق
بعد جهل
وبعد موت
إن حس الشعب يسبق
أى فكر
وأى صوت
هى دى مصر العظيمة
يا حبيبتى
هى مصر".

الصوت يتردد صداه فى الميدان، عبر مكبـــرات صـــوت المنصة الرئيسية، وحالة صمت وانصات أقرب إلى الصلاة، حطت على كل أهل الميدان وهم يستمعون إلى الكلمات المنغمة بصـــوت الشيخ إمام الأقرب إلى الأنين والحسرة، يقطع منتصـــر الصـــمت، موجهًا تساؤله إلى مينا:

ــ مين ده يا باشمهندس اللى بيغنى؟

ـــ يااه دى حكاية طويلة أوى يا عم منتصر، ده الشيخ إمـــام، مـــا سمعتش قبل كده عن حاجة اسمها إمام ونجم؟

ـــ لا وحياتك، مع إنى سميع قديم للراديو، وبشوف التلفزيون على طول.

يضحك مينا ضحكة صاخبة:

ـــ لأ، ما هو ده مش من اللى بييجوا فى الراديو والتلفزيون.

ـــ بس صوته راجل كبير وعجوز، صوته كده شبه صـــوت ســـيد مكاوى.

ـــ وكان أعمى برضه، بس بألف واحد مفتح، صوته ده كان بيحرك الحجر، والدولة كلها بجلالة قدرها كانت بتترعـــب مـــن صـــوت الراجل العجوز ده.

ـــ هو عايش؟

ـــ مات من زمن، بس شايف أغانيه لسه عايشه للنهاردة، وهتعيش طالما فيه فى الدنيا ظلم.. يلا نبتدى الشغل.

يُخرج منتصر الكشكول والقلم مـــن شـــنطته البلاســـتيكية السوداء، يقدمهما لمينا ويفرك يديه حماسة كأنه داخل على مغامرة:

ـــ يلا بينا.

ـــ ذاكرت اللي اتعلمناه إمبارح؟

ــ إيوه طبعًا، هو أنى ورايا حاجة تانية.. نقشتها ييجــى عشــرين مرة.. تحب أستهجالك؟

ــ لا ياعم أنا واثق فى ذمتك.. النهاردة هنتعلم جملة جديدة.

ــ وأنى كشكولى جاهز.

منتصر يردد الكلمات خلف مينا ويعيد رسم صور حروف الكلمات التى يعرضها عليه مينا عبر اللاب، مــع تكــرار ترديــد منطوقها، يمط فى الحروف وكأنه يستحلبها ولا يريد لمنطوقهــا أن يتبخر من بين لسانه وشفتيه، وعينه تحفظ كل تفصيلات تعرجــات الحرف واليد تحاول بكل دقة نقل تفصيلات التكوين، ومع تلاعــب اليد برسم الحرف لا يتوقف اللسان عن التكــرار. يــؤذن لصــلاة العصر ومنتصر منهمك فى عمله، مينا لمنتصر: "مش هتقوم تصلى العصر فى أوانه يا عم منتصر؟". منتصر وهو مندمج تمامًــا فــى رسم الحروف مع مط منطوق كل حرف وترديده متلــذذًا بنغماتــه وكأنه يغنى، ووسط اندماجه يرد على مينا: "العصر يتلحق بعــدين يا باشمهندس، إنما الدرس ما يتفوتش".

مينا يفتح له دنيا جديدة عاش عمره كله يحلم بها ولم يجــد الفرصة لدخولها، على الرغم من مبيته على الرصيف وانغلاق باب

رزقه ولا يعرف متى سيفتح وجيوبه الخاوية، فقد أصبح هناك مع طلعة كل يوم، إضافة جديدة تنتقل من لسان مينا إلى رأسه، فأصبح كل يوم يمر به مختلفاً عما قبله.. فى هذه اللحظة تمنى منتصر ألا تنتهى أيام الثورة حتى يكمل مينا تعليمه، ويستطيع قراءة الجورنال وحده.

منتصر لا يذكر الأيام ولا تواريخها فكل الأيام لديه سوداء متشابهة، وهو ينتظر دوره للحمام، تكون حفيظة قد دلت السبت لعم توكل، يخطف منه أولًا الجنيه ويلقى لها لحسة الفول في الكيس، يترحم على فول أمه الكهرمان اللي كانت بتبيته على رماد الكانون للصبح، حفيظة بنقرزتها المعتادة وبعد افتتاحية: "اطبخى يا جارية"، تخبره أنه لكي يأكل الفول ثانية بمواصفات أمه: "شوف هتتكلف لحسة زى دى أد إيه؟ الفول الحصى بقى بكام وأنبوبة البوتاجاز اللى بتيجى بالمذلة وشوية العدس وكُتر دبكة وقلة بركة وإحنا يا دوب.. احمد ربنا ع النعمة وبلاش بطر".. كانت من قبل تنزل بالطاسة وتدخل فى مفاصلة مع عم توكل يسمعها كل أبناء الحارة، وحتى يُخلِّص الرجل نفسه منها بمنحها نصف كبشة زيادة، أما الآن فتكتفى بتدلية السبت ويضع لها الفول فى الكيس البلاستيك.. تُخرِج الرغيف البايت من الخزانة، من العيش اللى طفحت الدم في طابور

إمبارح لما جابته حسب موشحها اليومى له قبل الفطـــار، ويكـــون البراد على النار، فيخرج من الحمام بعد أن يصيبه الـــدور ليجـــد الفول، لم تكلف نفسها حتى بإعادة تســـخينه ولا تحبيشـــه فتكتفـــى بتحابيش عم توكل، ويكون الشاي قد برد فيقذفه فى جوفـــه دفعـــة واحدة، مع آخر لقمة تكون هي قد سبقت للسوق عشـــان تجيـــب: "الخضار قبل ما يتنقض.. قُطعت العيشة واللى عايشـــينها".. هـــو شاكك اليومين دول إنها بتنزل الخدمة فى البيوت مع خيرية مرات عبد الحفيظ، دايمًا حجتها إن الولية تعبانة والجار للجار.. ما طول عمرها بتعمل التريكو وبتسلمه للحاجة عواطف وتاخد المصـــنعية، وقبل كده كانت بتنزل الوكالة كل جمعتين تلاتة مع خيرية تشترى هدمتين تلاتة حريمى وبناتى وأطقم ملايات وفوط ومفارش، وتدور تبيعهم ع الجيران اللى بالكاد ياخدوا حتة ولا طقم بطلوع الـــروح، ماهى الظروف منيلة ع الكل، لكن كان كبيرها مع كل هذا الجهـــد، إنها تجيب حلتين ألمونيا، أو صفاية للأطباق أو تعمل له بلوفر، بس دلوقتى حاجات جديدة بتدخل الأوضة آخرها مكنسة الكهربا، وكـــل ما يسأل تقول:" بدبأ من المصروف".. يقطع الطريق حتى ناصـــية الطالبية، يرى البت لواحظ اللي لسه ما خطتش سبعتاشر وخارجـــة ع الصبح على سنجة عشرة؛ إيشى أحمر وأخضر وكعـــب عـــالى وبنطلون محزق وبلوزة سدرها مفتوح باظظ منها كتمة البزين فى

السونتيان، لأ وإيه حابكة الطرحة قوى على شعرها وكل ما تتــزل الخصلة القدمانية قال إيه تداريها بسرعة جوا الطرحة.. تقف بعيدًا عن المحطة تتلفت حولها كاللصوص وهو بنظارته سـيئة الصــنع يُشرِّحها على البعد وتنغرس عيناه في لحم مؤخرة البنت الرجــراج اللى هيطرشق من زنقة البنطلون، مع وقفتها المتراقصة وخطواتها العصبية جيئة وذهابًا.. آه لو ركبت معاه الأتوبيس يوم وانحشرت قدامه! لكن المفعوصة لا تركب الأتوبيس أبدًا.. لا تضايقه الحَشْرَة فربما هذه من إحدى متعه القليلة في الحياة والتي تحدث رغمًا عنه؛ ففي الزحام ما باليد حيلة.. يصل إلى العمل، يتناول أدواته ويبــدأ لعبة القط والفأر بينه وبين المشرف، وفى المساء يعــاود الكَــرَّة.. الطبلية ذاتها والخضار قرديحى إلا يوم الخميس، ليس له في قعــدة القهوة ولا السيجارة، كل مزاجه هو كوباية الشاى يحبس بيها بعــد الأكل، كوباية ورا كوباية، الشاى التقيل خمس معالق سكر وحفيظة تفهم ما يرمى إليه: "الشاى مش هينيمك، وكل يوم أصحيك بطلوع الروح". يمنى نفسه كل ليلة بليلة مع حفيظة يستعرض فيها ذكوريته التى لا يشعر بها إلا فى المتاح بين يديه وهى نومته مــع حفيظــة وهى تحرن زى الحمار اللي طالع مطلع، فياخدها مــن قصــيرها ويجلس يشاهد التلفزيون، ليس مغرمًا بشيء محدد: "أهو بيوش لحد

ما يجيه النوم"، لكن المقدس عنده نشرة أخبار التاسعة على القنـــاة الأولى:

ــ والنبى بتشوف إيه غيرش أخبار الريس اللي رايح جاى فسح من بلاد الله لخلق الله، مش نشوف لنا فيلم ولا تمثيلية أحسن؟

ثم وهى تضع أمامه كوب الشاى:

ــ ألَّا يا خويا الريس ييجى عنده كام سنة كده؟

ــ أنى ساعة ما خدت الإعفا م الجيش كان هو زى ما هو كده، أى والله يا حفيظة.. أيام ماكان جنب السادات لزم، والله يتهيألى يا بت إنه كان أكبر من دلوقتى، فاكرة كان شعره أكرت وأبيض.. بالقليل جاب السبعين يا ولية.. دا إحنا اللى كنا عيال يوم ما حلف اليمين، قربنا أهو نطلع ع المعاش.

ــ أمال يا خويا أهالينا ماتوا ليه بدرى بدرى وكانوا أصـــغر منـــه بزمان، بس الشهادة لله اللى كان يشوفهم يقـــول علـــيهم جـــدوده.. سبحان الله أهو اللى يشوفك ويشوفه يقول عليه أصبى منك، ما هو العز حلو برضه يا خويا.. يووه مش هنخلص من أخبار الريس؟ يا راجل ماتجيب على فيلم أو تمثيلية أحسن.

ــ خلينا يا ولية نشوف أخبار الدنيا.. ولا يعنى عايزانا نعيش بهايم ونموت بهايم؟

جرب الوصلة عدة أشهر.. تكرارات الأفلام جعلته يستخسر العشرين جنيهًا فى الوصلة، طبعًا ما كانش يستجرى يطلب م الواد زيكو قناة من بتوع الأوربى والواد شايف دقنه أد كده، فاكتفى بملل التلفزيون الحكومي.

بعد أن استيقظ صباح السبت، يتذكر اليوم جيدًا بعد جمعة يوم الحشر، التى يطلق الشباب عليها هنا جمعة الغضب، بعد التهام ساندوتش مينا الأول.. شعر بالخجل من نفسه وهو يرى الشباب يقومون بتنظيف الميدان.. بحث عن مكنسته وجاروفه اللذيْن ضاعا منه بالأمس، وجد غيرهما الكثير وبدأ في المشاركة في تنظيف الميدان.. على العصر سمع من الشباب كلمات متناثرة: انفلات أمنى.. بلطجية وضرب نار وخروج مساجين.. ألسنة النار تتصاعد من حوله من أبنية كان حتى الأمس لا يجرؤ على المرور من أمامها.. ترك ما في يديه وقرر العودة للاطمئنان على حفيظة، وبالمرة يغير اليونيفورم الذى تشرَّب بدماء الأولاد الذين كان ينقلهم بالأمس إلى المستشفى الميدانى، وقد تحولت بقع الدم المنتشرة على اليونيفورم اليوم إلى اللون الأسود.. أخذها مشى وحتى الطالبية.. لا يعرف سر هذه الجرأة التى حلت عليه.. طوال الطريق يسمع

أصوات طلقات نارية.. الناس تهرول فى اتجاهات متداخلة.. يسمع صرخات تنطلق من البلكونات واستغاثات لطلب العون من المـــارة من هجوم بلطجية.. أشخاص يصيحون به: "ما تدخلش م الشـــارع ده، فيه ضرب نار".. لم يخف من جنازير البلطجية التى يحطمون بها واجهات المحال الزجاجية.. ربما لأنـــه يعــرف أنـــه بهيئتـــه وملابسه لن يكون مطمعًا لأحد؛ وربما مما عاشه بالأمس جعل كل ما سيراه فيما بعد لعب عيال.. يتوقف بفضول.. يستفسر.. يســأل عن الأحوال.. الناس تتلاشى بينها الحواجز، الكل يتكلم مع بعضه بمودة زائدة ويطرح مخاوفه:

ــ ربنا يستر ع البلد.

ــ ولاد الكلب مش هيكسرونا.

ــ ويمكرون ويمكر الله، دي مصر دي يا عم ربــك ذكرهـــا فـــي القرآن .. ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.. يعنى هتفضل محفوظة ليوم الدين.

ــ والله ولاد رجالة بصحيح.. أجدع مننا.. ربنا يحميهم لأهاليهم.

ــ والله السكينة سارقاكم، وبكرة هتترحموا على أيامه.

ــ يا مولانا الخروج على الحاكم كفر، مهما بلغ جبروته، مادام لم يجاهر بالكفر بالله ولم يمنع أداء الفروض.

ـ واللى عامله فينا دا مش كفر؟
ـ طالما بيحافظ على أداء الفروض؛ يبقى مسلم ولا يجوز الخروج عليه.
ـ اللهم ارحمنا من شرور الفتن.

يواصل طريقه باتجاه شارع الهرم.. حل الظلام، مع أذان العشاء كان البلد ولا كأنه نص الليل.. ليس هذا شارع الهرم الذي يعرفه، ويمر ذليلًا بجوار أرصفة كازينوهاته المحملة بأفخر أنواع السيارات، وروائح البرفانات النفاذة المنطلقة من فتيات يتسكعن على الأرصفة انتظارًا لفرصة دخول مع زبون سقع يكون آتيًا بمفرده، وأجساد البودى جاردات الضخمة التى تسد منافذ الأرصفة وتستعرض قوتها على أمثاله من العابرين على أقدامهم.. الحرائق والسيارات المحطمة على الجانبين جعلاه يشعر ببعض الراحة والتشفى مما كان يراه من قبل.. بمجرد دخوله شارع الطالبية وجد الشباب يضعون الأحجار والصفائح والبراميل وإطارات السيارات البالية والقطع الحديدية كعقبات لمنع مرور أي غريب إلا بعد إظهاره بطاقته وسبب مجيئه للحى في هذا الوقت بعد الحظر.. وجد شباب الحتة اللي كان يحسبهم بلطجية ومدمنى بانجو وبرشام، واقفين بالشوم والسنج والسيوف لصد أي هجوم.. قبل أن يستسلم

لتفتيش أحدهم سعيدًا بهذه الاحتياطات المحكمة، وصله صوت جهوري يصيح فيمن ينوى تفتيشه: "خليه يعدى ياد يا شوقى، دا ابن حتتنا يا جدع.. اتفضل يا شيخ منتصر" .. تحسس لحيته منتشيًا وواصل الطريق للحوش.

مع اقتراب منتصر من باب غرفته سمع صوت خبط ورزع ودق شواكيش آتيًا من غرفته، جرى سريعًا على الباب وحاول فتحه، لكن المفتاح لا يفتح، طرق الباب بعنف، كانت حفيظة خلف الباب وتأهبت للفتح بيقين أن من يطرق الباب بهذا العنف، هو بلطجى يحاول التهجم على الغرفة، حفيظة تفتح الباب بتحفز وهى شبه مغمضة العينين؛ تفتح ترباس الباب بيد وتمسك بيدها الأخرى شومة ضخمة مغروسًا فى نصفها السفلى عدة مسامير من دون رأس، منتصر يصاب بالذعر مع رؤيته لفتحة الباب تطل منها الشومة المغروس بها المسامير، فصرخ بعزم الصوت وهو يفر من أمامها فى اتجاه السلم: " أنى منتصر يا ولية، نهار أبوكِ إسود إيه ده؟".. وجد خيرية مرات عبد الحفيظ التى لم تكن تقوى على الخطو خطوتين تقف فى عمق الحجرة متحفزة على أهبة الاستعداد للهجوم، فى يدها شومة أخرى، حفيظة بتلقائية: " فكرتك بلطجى بيتهجم علينا، فكنت جاهزة أهبدك بالشومة على دماغك عشان

تعرف إن البيوت ليها حرمة". منتصر وهو ينتفض فزعًا من أثر الخضة: " وهو مع المسامير اللى انتِ زرعاها دى كنت هلحق أعرف حاجة؟ إيه اللى بتعملوه ده؟". خيرية وهى تتقدم نحوه: "البلطجية مطلوقين ع البيوت يا خويا، والتلفزيون كل شوية يجيب تلفونات ناس بتصرخ وبتطلب استغاثة من الحكومة، وبيقولوا يا خويا البلطجية دبحوا واحدة وحدانية على شارع الطالبية بعد ما هجموا عليها وخدوا دهبها وفلوسها، وانت وسى عبد الحفيظ بايتين بره، خرجنا من صبحية ربنا اشترينا الشومتين دول والمسامير وجبنا ترابيس للبيبان، ما هو مفيش أمان يا خويا اليومين دول، أسيبك أنا يا ختى بقى وأروح أَركِّب الترباس بتاعى، أقعد بالعافية يا سى منتصر وحمدلله على سلامتك". منتصر يدخل ملقيًا جسده على الكنبة الإسطمبولى، وحفيظة تزيح كور خيوط التريكو وإبر التريكو الخشبية والمعدنية، تجمعهم فى شنطة سوداء على الكنبة وتزيحهم بعيدًا عن جلسته، تتفحصه على البعد بقلق وهى تنظر إلى حالة ملابسه المزرية:

ــ شفتِ اللى حصل يا حفيظة؟

تقترب منه حفيظة وتبدأ التفتيش فى جسده بجزع:

ــ صابك شيء يا أخويا؟

ـــ مانى قدامك صاغ سليم أهو يا ولية.
ـــ أمال إيه اللى على هدومك دا كله؟ دا دم يا خويا، فيك شيء يـــا سى منتصر؟
ـــ شفت الموت بعينيه يا حفيظة.. الحمد لله ربنا سلم.
ـــ حمدلله على سلامتك يا خويا، كده توغوشنى عليك يا راجـــل.. أنى قلبى كلنى عليك من بعد صلاة الجمعة وشفت الشباب معـــديين من الحارة بيلموا الناس وقالوا طالعين ع التحرير، البـــت لـــواحظ جتنى وقالت لى: لازمن كلنا ننزل مع الشباب، يعنى عاجبك القرف اللى احنا فيه؟ خيرية راخرة جتنى وقالت لى: كل اللى فى البيـــت نازلين، ما تيجى أتسند عليكِ وننزل معاهم؟ عنها يا خويا وعلـــى شارع الطالبية شفنا ضرب النار وقنابـــل الـــدخان دى، الرجالـــة شاورولنا نرجع، نحرس البيوت وهما هيكملوا، رجعنا أنى وخيرية، وشفت فى الوصلة عند خيرية كل اللى حصل. والله لولاها لكنـــت رحت فيها، هى اللى طمنتنى وقالت لى دا فيه حظر وسى منتصر مش هيعرف يرجع النهاردة ، بس هو فى أمان طالما هو تحت فى المحطة ما طلعش لفوق وأكيد الشركة هتحميهم.
ـــ طلعنا يا حفيظة طلعنا، غصب عننا من الدخان.. يوم الحشر يا حفيظة.. بس دلوقتى جعان شوفيلى أى لقمة أكلها.

ــ حالًا يا خويا.. ها أعملك شوربة العدس اللى بتحبها، كُـل لــك بقسماطين تصبيرة مع كوباية الشاى على ما أخلص الأكل ونقعد ع الطبلية، تحكى لى كل حاجة من طأطأ لسلامو عليكم. أخرجت لــه من سحارة الكنبة غيارًا نضيفًا والجلباب الصوف:

ــ قوم حتى غير ع الناشف كده، وبعد العشا أسخن لك المية.

لم تجد منه استجابة، فأنهضته رغمًا عنه باحتضــانه مــن تحت إبطيه ورفعه لأعلى وهو شبه نائم وخلعت عنــه اليونيفــورم بصعوبة وهو يزوم متبرمًا كالأطفال، فاكتفت بخلــع اليونيفــورم وألبسته الجلباب على غياره الداخلى المتسخ، فانطرح على الكنبــة وكأنه مخدر:

ــ ثوانى وأجيب لك التصبيرة وكوباية الشاى.

قبل أن تصل إلى الخزانــة تحــت الترابيــزة لاســتخراج البقسماطين، وصلها صوت شخيره، نظرت إليه بابتسامة، واقتربت منه، ما إن لمست كتفه بيدها، حتى انتفض مذعورًا وهو يهذى:

ــ خير يا دكتورة.. أحمد كويس؟ يعنى هيعيش؟

ــ قوم يا خويا إفرد طولك على السرير لحد ما أجهزلك الأكل.

قام كالمنوم وألقى بجسده على السرير، وقامت بتغطيته بالبطانيـــة، ولاحظت أنه يهذى بكلمات متداخلة غير واضحة المعانى، تســـأله بصوت هامس:

ــ مين أحمد ده يا خويا؟

وجدت فمه وقد انفتح كعادته عند استغراقه فـــى النـــوم وصـــوت شخيره يصل لسابع جار، فاتجهت نحو ركنة الطبيخ وبـــدأت فـــى تجهيز الأكل على مهل؛ لتعطيه فرصة للنوم بعض الوقت.

ـ ٤ ـ

"عايزين أفكار لعيد الشرطة يوم ٢٥ يناير: لأن الناس دى بتتعب فى إهانة وتعذيب وأحيانًا قتل المواطنين المصريين فمينفعش يعدى يوم عيدهم من غير ما نفهمهم إننا مش هننسى. يا ريـــت أى حد عنده فكرة يطرحها ويا ريت أفكار تكـــون غريبـــة ومختلفـــة، ويارب يقدرنا نرجعلهم جزء من جمايلهم علينا".

صفحة كلنا خالد سعيد فى ١٠ يناير ٢٠١١

"النهاردة يوم ١٥.. يوم ٢٥ يناير هو عيد الشـــرطة يـــوم أجـــازة رسمية.. لو نزلنا ١٠٠ ألف واحد فى القـــاهرة محـــدش هيقـــف قصادنا.. يا ترى نقدر؟".

صفحة كلنا خالد سعيد فى مساء ١٤ يناير ٢٠١١

صحف القاهرة صباح الخميس ٢٧ يناير ٢٠١١ :

الأهرام:

" وفاة ٤ وإصابة ١١٨ مواطنًا و ١٦٢ شرطيًّا والقبض على ١٠٠ بالقاهرة والمحافظات".

الأخبار :

"تجدد المظاهرات بالقاهرة.. والداخلية تحظر المسيرات".

المصرى اليوم:

" المتظاهرون والأمن فى اليوم الثانى: لا تراجع ولا استسلام".

الشروق:

" عنف عشوائى وقسوة أمنية مفرطة فى ثانى أيام الغضب".

ــ لا يا ماما الموضوع ما عادش عيد شرطة ووقفة ضد التعذيب، النهاردة فى وسط البلد الهتاف كان صريح وواضح: " الشعب يريد إسقاط النظام".

الست تريزا جالسة على الفوتيه الكبير بالصالة، وعلى الترابيزة الأرابيسك الصغيرة التى أمامها صحف صباح الخميس ٢٧ يناير، تقلب فيها تستطلع العناوين الرئيسية، ثم تتناول صحيفة المصرى اليوم ويلفت انتباهها وسط الهوجة نشر الصحيفة الحديث المطول لوزير الداخلية مع مفيد فوزى بمناسبة عيد الشرطة، ومينا يقطع الصالة جيئة وذهابًا فى حالة قلق وتوتر، الست تريزا بحركة تلقائية تلازمها عند بداية الانهماك فى قراءة جادة، تدفع النظارة للداخل بإصبع السبابة للتأكد من ثبات موضعها على أرنبة أنفها، ثم تمد يدها للترابيزة لتناول فنجان القهوة السادة الذى أعده لها مينا ولفت انتباهها منذ لحظات بإن القهوة بردت، وهى تقرأ فى جريدة المصرى اليوم وبين شفتيها سيجارة غير مشتعلة:

ــ يا واد ما تخيلنيش.. تعالَ أقعد هنا قدامى اسمع الكلمتين دول، بس الأول ولع لى السيجارة دى، شوف يا سيدى البلد مولعة وحبيب العادلى بيقول إيه لمفيد، واللهِ عالم باردة: " ما حدث فى

تونس دمار وخراب؛ لأنه خارج المدى المشــروع، ومصــر لــم ترتعش مما حدث هناك ولن يرتعش مسئول فيها، وشدد على أنه لا يمكن قياس تونس بمصر؛ لأن العالم يشهد باستقرار مصر، وحرية الكلمة يجب أن تكون فى الأطر والحدود المقررة، وعلى الرغم من ذلك فإن الدولة تكفل حرية الكلمة". شايف الثقة والغرور.. قلت لى بقى الأعداد كانت كام؟

ــ لا ياماما.. انسى العشرة اتناشر نفر بتوع أيام كفاية، النهــاردة شفت بعينيه معنى كلمة حشود، مش بس الوشوش المحفوظة إياها، ناس أول مرة بتتعلم سياسة ومظاهرات، وجايين من كــل حتــة، جماعات بتشجع بعض، اللى جايين من دار السلام واللى من شبرا واللى من بولاق الدكرور.. صدقينى دى ثورة يا ماما، وإحنا فعلًــا مش أقل من تونس.

ــ أنا معاك، حركة تونس عملت " بوش " جامد للشباب فقــالوا إذا كانوا هما قدروا، إحنا ليه لأ، بس عندى إحساس إن فيــه شــيء ناقص.. الصورة مش واضحة.

ــ مش حضرتك كنتِ بتقولى: لحظة التحول يــوم نــزول الكتلــة الحرجة، الناس البسيطة اللى مش مسيسة، دول نزلوا، والنهــاردة النخبة المهادنة لهجتها اتغيرت متشجعة بنزول دول، يعنــى بكــرة

هيكون الحسم، وأكبر دليل كلام العادلى وأمثاله. دول بيرتعشوا، دا رعب مش ثقة.

ـ يا حبيبى مفيش ثورات تقوم بين يوم وليلة، الثـــورة لازم لهـــا طليعة واعية، ولازم لها فكر وخطط وإستراتيجية واضحة وقائـــد معروف للتفاوض وشغل ع الأرض كتير مع الناس البسيطة، توعية وتعليم وإقناع بقيمة التغيير وخلق الرغبة الحقيقية فيـــه والتبصـــير بالمخاطر؛ لإن يوم ما تنزل الكتلة الحرجة دى يا ويلك لو مكنتش مستعد لنزولها ومجهز لها وماذا بعد.. عمومًـــا الكـــلام خـــلاص ممنوش فايدة دلوقتى، أنا ست عجوزة وبعقلية مختلفة عن عقليـــة جيلكم، ومش هفسد عليكم فرحتكم، بكرة التحدى الكبير، وعنـــدكم يوم صعب، إنت دلوقتى تنزل تحلق شعرك الهايش ده ع الزيـــرو عشان محدش غشيم يجرك منه، وهات لنا خزين للبيت وكتر مـــن الفول الحصى والمدشوش والعدس والمكرونة والبطاطس، واشترى لى قدرة أكبر من اللى عندنا شوية عشـــان عـــايزة أعمـــل لـــك سندوتشات فول بزيادة ليك وللى تعرفه، مش هيكون عندكو وقـــت تدوروا على أكل، والفول هو اللى هيسد معاكم لآخر اليوم.

اختارت له البنطلون الجينز البلو بلاك فهو يتحمل الوســخ وقعــدة الرصيف، والقميص الكاروه الأزرق فى بنــى، كــذلك الكوتشــى الأزرق لزوم خفة الحركة، والجاكيت الجلد البنــى المــبطن مــن الداخل بالفرو، وناولته ورقة مطوية بها بعض أرقام التلفونات:

ــ الورقة دى فيها تلفونات شوية محامين كده عِشرة قديمة، حصل أى شيء اتصل بأى حد فيهم، وما تنساش كل ما تلاقــى فرصــة حاول تكلمنى ع الأرضى.. ارجع لى يا واد صاغ سليم كده زى ما أنا مخرجاك.. فاهم وإلا مش هسامحك العمر كله.

عند الباب وهى تتوكأ على عكازها لوداع ابنها قبل نزوله للميدان، تحرص الست تريزا على أن تدس فى جيبه نقودًا إضافية ليشترى سجائر بزيادة ليوزعها على الأصحاب فى الميدان، والست تريزا هى الفنانة التشكيلية الحالمة والمشاغبة، وهى إحدى أشــهر الناشطات اليساريات نهايات عصر السادات، والتى أدخلها السادات سجن القناطر مع نخبة من أنبل ســيدات مصــر، فيمــا عــرف باعتقالات سبتمبر ٨١، والتى وقف السادات بعــدها فــى مجلــس الشعب بعد أن سجن رموز كل التيارات السياسية والفكرية والدينية رجالًا ونساء ووزعهم على كل المعتقلات التى ادعى من قبل أنــه

أغلقها إلى الأبد، وقال متباهيًا كمن يمتلك الحقيقـــة المطلقـــة: " إن هناك فئة من الشعب تحاول إحداث الفتنة الطائفية"، وقد كان علـــى رأس هذه الفئة التى رآها السادات سبب الفتنة وتعرفت إليهم تريزا داخل السجن، صافيناز كاظم وشاهندة مقلد وأمينة رشـــيد ونـــوال السعداوى ولطيفة الزيات وغيرهن الكثيرات، وقد كانـــت تريـــزا أصغرهن، كانت فى السنة النهائية بكلية الفنون الجميلة، ولم يفرج عنهن إلا بعد اغتيال السادات. وعلى الرغم من مرارة تجربتها مع العمل السياسى، والذى أدى لاضطهادها فى عملها بوزارة الثقافة، ووضعها دائمًا فى القائمة السوداء المحرومة من كـــل المميـــزات، فإنها كانت هى المحرض الأول لابنها على أن يشارك فى حركـــة كفاية فور ولادتها، وربما لو كانت بصحتها ولم يهزمهـــا الســـكر والضغط وخشونة العظام، لكانت معه الآن فى الميدان.

يخرج مينا من خيمة ليـــدخل أخـــرى، يـــوزع ابتســـاماته وقفشاته على الجميع وما تيسر له من قوت والدته يوزعه على من يراه أمامه ويحتاج الطعام أو شرابًا أو سجائر، ويبدأ فـــى رصـــد أحدث الهتافات التى رددها المشاركون فى الميدان وباقى ميـــادين مصر ويسأل مَنْ عنده جديد منها ليخبره بها؛ لأنه ينوى بعد نجاح الثورة أن يوثق فى كتاب كل ما أنتجته قريحة المصرى وفطرتـــه

من هتافات طوال أيام الثورة.. يتحدث بحماسة عن المعجزة التـــى تحققت بتحرك الملايين والتى ستنتهى بوعى جديد وحياة جديـــدة، وتكون خاتمة المطاف، يأتى للجلوس بجوار منتصر على مـــدخل المحطة، يفرد كراساته وأقلامه ويبدأ مهمة تعليم منتصر القـــراءة والكتابة:

ــ إنت منين يا عم منتصر؟

ــ أنى أصلًا من المنصورة يا باشمهندس، بس عايش هنا فى مصر من زمن.

ــ وإيه اللى جابك القاهرة؟

ــ دى حكاية طويلة يا باشمهندس.

ــ وأنا مستعد أسمع.

يتربع منتصر فى جلسته، ويبدأ فى التنحنح كمن يتأهب لإلقاء خطبة أو الاعتراف بسرٍ خطير:

ــ ممكن سيجارة يا باشمهندس؟

مينا وهو يخرج السيجارة من علبته:

ــ ما شفتكش يعنى بتدخن قبل كده.

ـ وعمرى ما جربتها، عندى عقدة من كل الدخان.. كنت حاسس إن كل التعب اللى كان عند أبويا كان سببه الجوزة، بس ما عادتش تفرق.. هات هات.. ولع لى.

يسحب نفسًا عميقًا من السيجارة ويخرجه دون سعال كأى محترف تدخين، لكن طريقة إمساكه بالسيجارة ونقلها المتوتر بين أصابع اليد اليمنى ثم اليسرى، يشى بأنها مرته الأولى:

ـ إحنا كنا صحابات أرض، أيوه والله، أبويا سلم على الزعيم ذات نفسه وهو بيديله عقد التلات فدادين، كنت يا دوب اتولدت عشان كده أبويا قال عليَّه: وش الخير.. كنا بناكل من خيرها، بس أبويا ما كانش عايزنى أطلع فلاح، قال لى: الخير جه مع ولادتك ودى بشارة، كان نفسه يشوفنى دكتور، مهندس، ظابط، أيتها حاجة إلا فلاح.. نهايته ما فلحتش فى التعليم؛ ما هو كان أبويا ابتدا يتعب وكنت باشتغل عشان أساعده؛ ولأنى ما بفهمش فى الفلاحة وأبويا كان تعبان وكنت برضك صغير على شيل المسئولية، أبويا أجَّر الأرض لمزارع كان بيطلع لنا بعد كل زرعة ملاليم، نهايته راحت الأرض وقلت: آجي أم الدنيا زى كل الخلق أجرب حظى، عنها من وقتها لحد دلوقتى وأهى ماشية.

خجل منتصر أن يحكى لمينا كيفية ضـــياع الأرض التـــى كانت ملكهم، فبعد أن رشا أبناء الباشا "أبو الحمايل" الفـــلاح الـــذى يؤجر منهم الأرض لتجريفها وأبلغوا الإصلاح عما تم فى الأرض فرفع الإصلاح عليهم قضية تجريف، وبدأ أهل السوء يخيفون أبـــاه أن القضية فيها سجن وبلاوى زرقة، ونصحوه بالرضوخ والتنازل عن الأرض لأولاد "أبو الحمايل" وهما هيشيلوا عنه القضية، وقال له أهل السوء أيضًا: إن الحق حبيب الله والأرض دى أصلاً أرض ولاد "أبوالحمايل" وقد ظلمهم عبدالناصر، فهل يقبــل علـــى نفســـه الحرام؟ فليعدها لهم ويقبل بما يجودون عليه من إحسانهم، وألقوا له أول عن آخر خمسة آلاف جنيه، جمعهـــم الأب وقـــال لـــه هـــو ومصباح: "الفلوس دى أمانة، لو طلع السر الإلهى تســـتَّروا بـــيهم إخواتكم البنات، عايزكم ترضوا عنى وتعرفوا إنى ما ظلمتكـــوش. هاج مصباح وطلب حقه وأن يرث أباه على عين حياته، وأن تقسم الفلوس بالشرع بينه وبين أخواته البنات وشقيقه؛ وبما أنه ذكر فله نصيب اثنتين من شقيقاته، وكاد يضرب الأب والأم، فلطمه منتصر قلمين على صداغه يفوقوه، وكاد مصباح الأكثر طولًا وأقوى بنيـــة من منتصر، يفتك بمنتصر لولا وقـــوف الأب المـــريض بينهمـــا ووقوعه على الأرض داخلًا فى إغماءة سكر، بعـــدها منحـــه الأب الراقد على سرير المرض، خمسمائة جنيه من الفلوس وقـــال لـــه:

روح يا بنى لحال سبيلك، بعدها سافر مصباح لأفغانستان وانقطعت أخباره، لكن منتصر لا يغفر لنفسه، بعدها بعامين لمَّح لوالده أنــه عايز يسافر بره زى أصحابه يكوِّن نفسه ويستَّر إخواته من وسع. فهم الأب ما يرمى إليه منتصر من حاجته لنقود شِـوار البنــات، ففاتحه الأب فى عريس قادم لأخته وليفعل ما يراه صوابًا، وأوصاه بالبنات، بعدها بأيام مات الأب حسرة وكمدًا أو لشعوره بأنــه أدى الأمانة وأصبح وجوده عبئًا على أولاده. بعدها ارتحــل منتصــر للبحث عن رزقه فى القاهرة، ووعد أمه أن النقود المحفوظة لزواج أخواته سيزيد عليها ولن يأخذ منها مليمًا.

اشتغل فواعلى بعض الوقت، يصحو مبكرًا مصاحبًا عدتــه البسيطة؛ شاكوشًا ومرزبة وقدومًا ومقطفًا، ويجلس ضــمن هــذا الصف الطويل الذي يفترش رصــيف المحطــة المقابــل لمســجد نصرالدين بأول الهرم.. يجلس مع المنتظرين وصــول أصــحاب الحاجات.. هدد.. تحميل رمل أو زلط أو طوب أو مناول ورا بنــا أو عامل رفع مونة.. القادم للاختيار يتفرس العينة المعروضة جيدًا ليختار الأقوى بنية والأكثر شبابًا ليكون أكثر قدرة على التحمــل، وكان هو وقتها الأقوى بنية والأكثر شبابًا. أوفى منتصــر بوعــده وساعد أمه وستَّر أخواته البنات بجوازات ع الأد.. تمكن من تأجير

غرفة ضمن غرف بحوش في منطقة عزبة فكيهة بالطالبيـــة ذات حمام مشترك، بعدها راح البلد جاب البنت دي من اختيار أمه: "بت يتيمة، أهى من توبنا ومالهاش طلبات". يبتسم منتصر عندما همس لأمه فى أذنها وهما عائدان من زيارة رؤية حفيظة: "بس دى ناشفة أوى يا مه".. تضحك أمه فى واحدة من نوادرها: " ياواد.. وقــت اللمبة أما تتطفى كل الستات واحد، وبكرة أما تمرح فـــى خيـــرك هتبقى زى الجاموسة". تقلب في الأعمال حتى جاءته شغلة شـــركة النظافة بترشيح من رفيقه في الحوش عبد الحفيظ الذي أكرمه فـــى الوظيفة وأخذ منه مقابل تعيينه فى الشركة ألفى جنيه على دفعات، بعد حلفان بأيمانات الله إنهم مش ليه، وهو يا دوب واسطة بيخـــدم والفلوس دى بتروح لناس كبار.. مراته قدرت تعمل لـــه جمعيـــة وساوم عبد الحفيظ على فلوسه كاش بشرط يخفضهم لألف ونص، كل المرتب كان بيروح ع الجمعية وكانت ماشية بنزوله أيام الجمع والأجازات يقعد ع الرصيف، وكمان حفيظة كانت بتدبأ البيت بإنها تستلف قرشين من الحاجة عواطف جارتهم تنـــزل تشـــترى بـــيهم هدمتين من الوكالة وتدور تبيعهم ع الحارة، تسدد فلوس عواطـــف وتاخد المكسب والست كانت جدعة ما بتاخدش منها فوايـــد لحـــد مأقنعتها تتعلم تريكو وعواطف تجيب لها الصوف وهـــى تعملـــه وتاخد المصنعية ومشيت الدنيا.. سرقته الدنيا من كتر جريـــه ورا

لقمة العيش..إيه اللى فكره دلوقتى .. قبل الأمل ما ينقطع خالص؟.. يسترجع شريط حياته وهو متسمر أمام برواز المولود الأشقر.

منذ أن قام العمال بتعليق هذا البرواز المضيء على الجدار الأيمن للممر المؤدى إلى سلم المترو، عند المدخل المواجه للمتحف، وعين منتصر لا تنزل من عليه وكأنه عهدته الشخصية التي ربما لو غفل عنها لسرقه أحد العابرين.. يدور دورته ويعود إليه سريعًا، يتسمر أمامه.. يقترب من الزجاج ينفخ فيه كما يفعل بعدسات نظارته سيئة الصنع التي سلموها له فى التأمين الصحي بعد طول مماطلة، يجذب طرف كم اليونيفورم ويبدأ في التلميع ويتطلع إليه من كل الزوايا للتأكد من دقة تلميعه، وبالفرطة المتدلية من جيب البنطلون يبدأ بتنظيف الإطار وحتى سيراميك الحائط.. قد تمر الساعات وهو منهمك في عمله يعيده مرات ومرات، لا يفيق إلا عند مرور واحدة من هذه المؤخرات كاملة الاستدارة والجديرة بالمتابعة فيدور خلفها مُزحِفًّا بأدواته على الأرض وكأنه يقوم بواجباته على أكمل وجه، حتى يصل بها إلى منتهى طريقها ثم يعود إلى بروازه، أو على شخطة المشرف المفعوص وتهديده له بمزيد من الخصومات والجزاءات إذا ما انتبهش لأكل عيشه.. شاغله المولود الأشقر المتربع فى منتصف البرواز منذ اللحظة

الأولى التي رآه فيها بين يدي العمال، يتلقفونه بحرص ومبالغة زائدة من على الأرض ويقومون بتثبيته على الجدران، بعد تمام التأكد من أنه يحتل موقع الصدارة من البرواز.. يدعوه كل يوم لأن يكون هو أول اصطباحته.. لا يعتبر حفيظة بوشها اللي يقطع الخميرة من البيت هي اصطباحته الأولى؛ فأى اصطباحة هذه التى تبدأ بإلقاء شوية الفول المحصرمين ورغيف العيش البايت ع الطبلية وجنبيهم كوباية الشاى الباردة، و"أنى خارجة السوق ألحق أجيب الخضار قبل ما يتنقض".. يتفاءل به على الرغم مما أصابه من تسمره أمامه من جزاءات أوقعها عليه المشرف الشرس الذي لا يمل من عقابه في الرايحة والجاية وكأنه لا يوجد فى المحطة إلا هو: "ما هو ابن الوسخة مستهيفنى عشان ما معاييش شهادة.. حسبى الله ونعم الوكيل.. كل ظالم وله نهاية".. يحدق بعينيه الكليلتين المدعومتين بعدستي نظارته سيئة الصنع، فيشاغل عينيه ذلك المولود الأشقر المتربع أعلى اللوحة بابتسامته التي تشبه ابتسامة المرأة اللعوب التي تشاغل الزبائن.. لازم الواد ييجى أشقر فسته أم أبيه كانت ذات عينيْن زرقاوين كما يؤكد والده، وعلى الرغم من سمار والده وخمرية والدته فشقيقته الكبرى إنصاف ذات شعر أصفر متوهج كلون شعر بنات الخواجات. هو شديد السمرة الخالق الناطق جده كما كان يقول أبوه: "ما داهيه ليبجى الواد شكل

حفيظة دى لا شكل ولا لون". يضحك مع نفسه ويردد لنفسه وهو يقف أمام البرواز: "بس والله طيبة وبنت حلال.. بس ييجى.. الواد ما يعيبوش حاجة، حتى لو جه شبه حفيظة، كفاية إنه واد، هيشيل همى فى أواخر حياتى ويدعيلى بعد مماتى".. حروف متداخلة فيما فوق المولود وتحته: "لو بس كنت أعرف أفك كل الخطوط المتلعبكة دى؟"، لذهب منتصر إلى المكان في طى الكتمان ليعرف راسه من رجليه: "رَمَح العمر وجرى وباينك هتخرج منها ياد يا منتصر من غير ذِكْر، وبنت المجنونة ولا فى بالها كل ما أفتح السيرة تقول لي: "بلا نيلة، هو احنا عارفين نعيّش نفسينا الأول لما نجيب اللي يلعنونا عشان الظروف اللي احنا فيها؟"، لسانها مرزبة بنت الرفضى ودايمًا قافشة، بس طيبة وعمرها ما اشتكت.. ما هو اللى ما يشوفش م الغربال يبقى أعمى، وهى شايفة الحال.. مفيش الواد اللى يترحم عليك بعد العمر الطويل يا منتصر.. إيه.. الله يرحمك يابا.. هو هافف عليَّه قوى كده ليه؟.. روحه بالتأكيد طالبة الرحمة.. الله يرحمك يا با ولو إنى مش مسامحك".

يأتى مينا متهللًا معلقًا فى كتفه حقيبة اللاب توب وفى يد بعض اللوحات المبرومة، وفى اليد الأخرى كيس بلاستيك أسود، وهو يجلس بجوار منتصر على سلالم المدخل، يبدأ فى فتح الكيس

البلاستيك ومنتصر ينفجر فى الضحك بمجرد أن رأى مــا بــداخل الكيس:

ــ نهار أبيض يا باشمهندس، هو انتو لسه حداكو عامود الأكل ده؟!
ــ دا ميراث عائلى يا عم منتصر، أصل بقى إيه، الست تريزا وقت ما كانت فى المعتقل، كانت أمها تودي لها الأكل طازة كل يوم فى العامود ده، كانت بنتها الوحيدة وعمرها ما بعدت عنهــا، تخــرج الست إيفلين من شبرا وتطلع للقناطر، تحايل حراس السجن لحد ما يرضوا عنها ويدخلوا لها العامود ده لبنتها اللى ما تعودتش تاكــل بره البيت، أمى بتعتز بالعامود ده قوى، وأهو نفع أهو.. إيه كــان عندكو زيه؟

ــ إحنا كنا نطول يا باشمهندس.. كان دايمًا واحنا بنشتغل فى لــم الدودة فى موسم القطن، ييجى الواد ابن الملاحظ لأبوه ساعة الغدا بالعامود ده، فنحس إن جانا الفرج، الملاحظ المفترى كان ماســك الكرباج من صبحية ربنا لحد عز النقراية، اللى يكل أو يريح شوية ويقيم ضهره من التعب، يلسوعه بالكرباج فيفط ينط ويرجع لمكانه فى الصف، يحنى ضهره ويرجع للم الدودة، وساعة ما يهل العامود يكون جانا الفرج إن أخيرًا المفترى ده هيسمح لنا نقعد نتغدى على

ما هو يطفح، يقعد هو يلغ فى الهبر وصوت شفطه للشوربة جايب آخر البلد، واحنا كل واحد فينا يستربع ع الأرض ويفرد بقجته اللى فيها شُقة عيش وحتة جبنة قريش وفحل بصل وعـودين سـريس وعينينا هتطلع ع الأكل اللى فى العامود.

منتصر يفرك يديه وهو يترقب فتحة مينا للعامود المكـون من ثلاث أوانٍ ألمونيوم مستديرة ومتراصة فوق بعضها، محكمـة الإغلاق بهاتين الذراعين الألومونيوم المثبت بهما الأوانى الـثلاث والمنتهى بذراع خشبية أسفلها شفة معدنية لإحكام غلـق العـامود؛ لضمان عدم دلق المحتويات ووصولها ساخنة، أول إناء من أسـفل يحوى الشوربة واللحم يليه الخضار وهو بطـاطس بالدمعـة، ثـم الأرز فى الإناء العلوى.

منتصر يخطف إناء الشوربة باللحم ويرفعـه إلـى فمـه، وصوت رشفته يصل لآخر الميدان:

ــ لا مؤاخذة يا باشمهندس، بس أكيد الست الوالدة ما سـابتكش تخرج إلا لمَّا أكلتك.. الله.. لحمة.. دى هبر لحمـه بجـد، مـش الأمبورجر ده ولا التانى الحراق ده اللى اسمه سجق.. دى لحمـة

بحق وحقيق وجت فى وقتها.. الله إيه الحلاوة دى.. تسـلم إيـدين الست أم مينا.

بعد الإجهاز على الشوربة، يقذف هبرة لحمة دفعة واحدة فى جوفه، ومع الهبرة الثانية، يتوقف عن القضم فجأة ثم وهو يتطلع إلى مينا بحذر ويتوقف عن مضغ ما في فمه:

ــ أوعى تكون لحمة خنزير يا باشمهندس؟

تنتاب مينا ضحكة هستيرية:

ــ جاى تسأل بعد ما لهفت هبرتين ياشيخ منتصر؟

ــ والنبى ريحنى يا باشمهندس، أنى عارف إنه حلال عندكم، لكن حرام عندنا ومش حرام

عادى دا من الكبائر.. دى لحمة والعياذ بالله خنزيـر.. أنـى عارف بيجيلكو نفس تاكلوها

إزاى؟

ــ دوس.. دوس.. لحم بقرى يا معلم.

منتصر وهو يقضم بنهم:

ــ أوعى تكون بتضحك عليَّه؟ ربنا مطلع وشايف.

ــ والمسيح الحى ما بضحك عليك.

ـ دى بقى الأكلة اللى تستاهل كوباية شاى دوبل.

ـ عم منتصر.. إيه اللى مقعدك هنا؟

ـ ما قلت لك يا أستاذ مينا: شغلي هنا.

ـ ودلوقتى مفيش شغل.. فى إمكانك تروَّح وتقعد فى بيتك لحد ما تفتح المحطة تانى، وبعدين ما باقى المحطات شغالة وأكيد لو سألت هتلاقيهم موزعينك على محطة تانية.. ليه قاعد؟

ـ أقول لك الحق.. أنى مفيش حاجة فى حياتى تستاهل إنى أبكى عليها، اللى جاى مش هيكون أوحش م اللى راح.. ربك والحق أنى ما كانش فى نيتى أقعد، هى جت كده.. فجأة لقيتنى يوم الجمعة من الدار للنار.. أما قعدت حسيت إن فيه حاجة كبيرة أوى بتحصل، عايز أشوفها بحق وحقيق.. طول عمرى باسمع عن حاجات كبيرة حصلت بس ما شفتهاش.. طب تعرف إن أبويا سمانى منتصر عشان اتولدت أيام العدوان الثلاثي؟ سمعت من أبويا حكايات وعشت مع حكاياته أحلام هشوفها بتتحقق لما أكبر.. ربك والحق ما كنتش مصدق؛ لأنى كل ماده كنت بشوف اللى بعيشه حاجة، واللى بسمع عنه حاجة تانية.. لما كبرت لقيتها كلها على فاشوش، هو أنى كسبت إيه عشان أخسره؟ أنى قاعد عشان أشوف أحلام

أبويا بتتحقق، مش جايز تحصل حاجة كبيرة بجد، أقله هنبقى أحسن من الأول، ولا انت شايف غير كده؟

ــ نفسك إيه يعنى يتحقق بالظبط، إن مبارك يتشال؟

ــ وأنى مالى ومال مبارك؟ نفسي الأول يتشال المشرف ابن الوسخة اللي متقصدنى في الرايحة والجاية كأني العبد اللي اشترهوله أبوه، نفسى يجينى مشرف يعاملنى على إنى بنى آدم زيى زيه، نفسى ما أتحوجش لمدة إيدى للى يسوى واللى ما يسواش. أنى صحيح ما بطلبش من حد حاجة، لكن لو حد إدانى باطاطى فى الأرض وأحس إنى نفسى مكسورة، لكن فى الآخر بمد إيدى وآخد اللى قسم لى بيه ربنا.. نفسى كده يبقى عندى عِزة نفس وأقول للى يمد لى إيده: عيب يا أستاذ أنى راجل موظف محترم، شغلى بيدينى اللى يكفينى وزيادة.. نفسى ــ لا قدر الله ــ لو تعبت أنى ولا مراتى ألاقى مستشفى أروحها، وأنى مش حاطط إيدى على قلبى م المصاريف وأتحوج للى يسوى واللى ما يسواش.. طب إيه قولك إنى مرة وقعت على سلالم المحطة، دراعى اتكسر.. ولاد الحلال قالوا لى: روح مستشفى الهلال اللى هناك دى عند محطة الإسعاف، يجبسوهولك، دى مستشفى حكومى يعنى ببلاش.. إيه قولك إنهم ما رضيوش يدخلونى إلا لمَّا أدفع كشف عشرين جنيه،

وأشعة مش عارف أبصر كام والجبس كام.. مية وخمســين جنيــه كان كل اللى فى جيبى منهم خمسة جنيه، ولولا ولاد الحلال.. إيه.. كل ده هيتغير يا باشمهندس.. صح؟.. إنت متعلم وفاهم كل حاجة.. كل الحاجات دى هتتغير ولا إيه قولك؟ إنت راجل متنور وراسى ع الدور رسينى.. قعدتنا دى عشان كل ده يتحقق صح ولا أنى باحلم؟

ـ مفيش حاجة هتتغير لوحدها يا عم منتصر، التغيير بيحصل بينا إحنا.. هتقابلنا أيام صعبة.. المهم نصمد يــا عــم منتصــر.. لــو استعجلنا مش هنطول حاجة.

يشرد منتصر، ثم وهو يحدث نفسه:

ـ نفسى فى عيل يشيل اسمى ويترحم عليَّه بعد ما أموت، هو أنى يعنى مش بنى آدم زى الكبارات اللى بيعملوا عمليات يجيبوا بيهــا عيال حتى ولو مابيخلفوش؟ بس نفسي العيل ييجى والبلد غير البلد؛ عشان ما يشوفش الذل اللى أنى شفته.. عيل يعيش فى دنيا بحــق وحقيق مش الدنيا اللى رسمها لى أبويا وطلعت على فاشوش.

تدمع عينا منتصر فيشيح بوجهه بعيدًا عن وجه مينا حتى لا يراه وهو يبكى، يمد أصابعه من تحت إطـــار النضـــارة ويمســح بطرف إصبعه، الدمعة المنسابة، تصل إلى مسمعه أصوات موسيقى هادرة آتية من اتجاه عبد المنعم رياض، ينتفض مينا واقفًا ووجهــه يتهلل بالفرحة:

ــ فرقة إسكندريلا وصلت الميدان يا عم منتصر.

يسحب منتصر من ذراعه لينهض:

ــ يلا بينا يا عم منتصر.

ــ على فين يا باشمهندس؟ وإيه إسكندرية دى؟

ــ يلا بينا وانت هتشوف.

يتجهان نحو محطة أتوبيس ميدان عبد المــنعم ريــاض، يجرى مينا محاولًا اختراق الحشد، ومنتصر يجرى خلفــه وعــدد هائل من رواد الميدان يجرون معهما فى الاتجاه ذاته. مجموعة من الشباب والفتيات يجلسون على كراسى المحطــة، بأيــديهم أدوات موسيقية بسيطة وعلى يمينهم ويسارهم ســماعتا صــوت يخــرج الصوت منهما مدويًا، فى لحظات أصبح يحيطهم المئات من أبنـــاء الميدان:

ــ راجعين من الماضى
رايحين على المستقبل
بعزمنا الماضى
الدنيا تصبح أجمل.
يا حياة يا حرية
يا روح يا مصرية
يا عيش وملح وماء
الناس سواسية.

لم يستطع أن يحبس دموعه هذه المرة أيضًا، وإن التفت بوجهه بعيدًا عن وجه مينا وأخذ يردد لنفسه :" الناس سواسية أيوه.. والله سواسية، كلنا ولاد آدم وحوا".

ـ ٥ ـ

" ما كانش معقول بأى حال من الأحوال أن يستمر نص فى المية من السكان فى الحصول على ٥٠ فى المية من الــدخل القــومى.. معركة بورسعيد نفسها حددت معايير إعادة توزيع الثروة.. النصر اللى حققتوه فى بورسعيد هو اللى دعم هذه المعركة".

"من خطاب للزعيم جمال عبد الناصر
عقب جلاء العدوان الثلاثى عن مصر
عام ١٩٥٦ ".

عندما صرخت أم منتصر صرختها المدوية المبشرة ببزوغ نجم ولى العهد، كان أبو منتصر يردد خلف إمام مسـجد القريـة المتهالك والمتوارث من جدود الجدود، الدعوات للـزعيم الشـاب بالنصر المبين: "يا سبحان الله، دا كفاية اسمه فيه بشاير النصر.. ما هي دي علامة وبشارة.. إلهام رباني.. أى واللهِ.. يوه يا ولاد، لـو تصدق المرة دى وييجى الواد؟ واللهِ لأسميه منتصر.. بشارة النصر اللي جى بـإذن الله.. .. منتصـر .. نصـر .. منصـور.. واللهِ منتصر.. ما احنا منتصرين بإذن الله طول ما معانا الـريس.. واللهِ عفارم عليه راجل من ضهر راجل بصحيح.. معلوم النصر جـاى بالمشيئة، دا ربك رب قلوب.. ما هو مش معقولة ربنـا هيكسـفنا واحنا حماة الدين.. دا إحنا أمة محمد خير أمة أخرجت للناس على رأى مولانا.. مين عالِم؟ مش يمكن يبقى في يوم م الأيام في هيبته كده ووقفته؟ ماهو زعيمنا ده، اسم النبى حارسه وصـاينه، واللـى بتتبدر له الأرض بالخلايق دى كليتها، أبـوه لا كـان أميـر ولا وزير.. سبحانه العاطى الوهاب.. أو أقله يبقى دكتور؟ والله لاحكم عليه يعالج الغلابة ببلاش، وأهل الكفر فى الراحة والجاية يقولـوا: أبو الدكتور راح أبو الدكتور جه.. ربك قادر على كل شيء، واللهِ براوة عليه إنه قدر يقف ويتحدى الجبابرة دول، دا إحنا من زمـن الزمن وكنا بنعافر وما قدرناش ع الإنجليز لوحديهم.. شوف قـدرة

ربك أما يريد أهو واقـف أهـو زى السـبع فـى وش الإنجليـز والفرنساوية والصهاينة و.. و.. القوى الرجعية!".

"عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية"، يتهجى منتصر الأحـرف بصعوبة بالغة ولكن بتلذذ وفرحة استكشاف كنز كان يبحث عنـه طويلًا، يأخذ القلم الفلوماستر الملون من يد مينا، يسترجع طريقـة إمساك مينا بهذا القلم الغليظ، بإحكام قبضة طرفى الإبهام والسـبابة عليه مع استناد حافة القلم السفلية على انثناءة الوسـطى لضـمان اتزان الكتابة فى خط مستقيم. ويجرب طريقة إمساكه بالقلم بتجريب الكتابة الوهمية فى الهواء حتى لا يشوه الكراسة، يفتح الكراسة التى أهداه إياها مينا للتدريب ويبدأ فى نقش الجملة حرفًا حرفًا، ويمـط فى منطوق كل حرف بصوت غنائى أجش ويظل يـردد منطـوق الحرف طوال الفترة التى يسـتغرقها إبهامـه وسـبابته بمسـاعدة الوسطى فى تشكيله، وبعد اكتمال نقشة الحرف يرفع يده للاستراحة كمن بذل مجهودًا خارقًا، ثم يتأمل الحرف مـن الجهـات الأربـع بانبهار، مع تكرار ترديد منطوقه بلغة ممطوطة تشعر معها وكأنه يمضغ الحرف مضغًا، كأنه لا يصدق نفسه بأنـه صـاحب هـذه الخطوط التى كان يرى مثلها من قبل خطوطًا متلعبكة فى بعضها، ومع اكتمال كل كلمة يتوقف ويعاود تأملها مـن الجهـات الأربـع

ويرددها لنفسه.. تنتابه فرحة عارمة عند نجاحه فى كتابة الجملة صحيحة، شعر بذلك من نظرة تأييد مينا وابتسامته، وهو نفسه أخذ يراجع ما بين الأصل وما تم نقله، يتمايل برأسه يميناً ويسارًا بنشوة وإعجاب بإنجازه: " الله الله.. الله عليك يا منتصر، واخد بالك يا باشمهندس أنى ما وقعش منى ولا حتى نقطة".

يعيد القلم الفلوماستر لمينا، يتأمل إنجازه العظيم ثانية، يقرب صفحة الكراسة التى كتب بها الجملة، من عدستى نظارته سيئة الصنع ويبعدها ويعاود تكرار النظر إليها على البعد والقرب بإعجاب من صنع معجزة:

ــ الله يا ولاد أنى اللى كتبت دى بإيدى.. دى سهلة قوى يا باشمهندس.. فكرك بعد أد إيه كده كل الكلام يبقى سهل عندى زى دى كده؟

ــ لو خدت الموضوع جد من غير كسل، أضمن لك ده بعد تلات شهور.

ــ يااه تلات شهور حتة واحدة؟ أنى فكرى إنى يمكن فى يوم، والتانى أقدر أقرا الجرنان.

على المصطبة الطينية التى صبها أبو منتصر أمام بيته الطينى بعد حصوله على أرض الإصلاح، ومع جلسات الصحبة فى الأمسيات ومع دوران الجوزة ودورات براد الشاى النحاسى المزنجر والمتفحم من الخارج، القابع فوق الراكية طوال المساء، كان يسهب فى وصف الزعيم والزعامة التى كانت تشع من عينيه، فقد كان من المحظوظين الذين رأوا الزعيم عن قرب، عندما زار الزعيم قريتهم ضمن وفد مجلس قيادة الثورة فى أثناء جولاتهم المكوكية بين القرى والنجوع لكسب شعبية بين البسطاء: " شوف ربك لما يريد، ما هو أنى يوميها خرجت م الجامع إيدى فى دراع سيدنا.. كنت باخد منه مشورة فى موضوع كده، الكلام خدنا ووصلنا لحد الصوان، أنى إتحَّرجت وقلت له: أرجع أنى بقى يا سيدنا، الصوان ده مش للى زينا يا مولانا.. المقامات محفوظة برضك، أنى راجل فلاح على باب الله.. قال لى مولانا أى والله زى ما بأقول لكم كده: "رجلى على رجلك يا راجل يا طيب.. هذه الحركة المباركة قد قامت من أجلكم". يقولها أبو منتصر بلغة عربية فصيحة مقلدًا طريقة أداء مولانا: " ما هو الباشا كان موصى الخدم إن سيدنا يقعد فى الصف الأولانى، عنها والعبد لله بقى بين يوم وليلة راسه براس الأعيان والكبارات.. أى والله كنت فى الصف الأولانى فى ريح مولانا لزم.

رفقاء الجوزة على المصطبة الطينية يصيحون مع حلقــات الدخان المتصاعدة من الجوزة الدائرة بينهم: " الله أكبر.. الله أكبر.. طول عمر مولانا راجل صاحب كرامات يا أبو منتصــر وإنــت راجل طيب.. أى والله وفيك شيء لله".

يتربع أبو منتصر فى جلسته وسط المصطبة، بعــد رشـــفه رشفة من كوب الشاى مصحوبة بعدة أنفاس متلاحقة من الجــوزة التى وصلت من دورتها إليه:

ــ ده دى، ما خلاص ما عادش فيه كبير وصغير يا ولاد.. ارفــع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد.. صدق واللهِ أبو خالد " ما صحيح يا ولاد.. ما الروس اتساوت خلاص" لأ يا ولاد ولا ساعة ما كان بيسلمنا الأرض، وقف زى السبع وبدأ خطبته:

ينجعص أبو منتتصر فى جلسته ويشد جذعه وكأنه يستحضر هيئة الزعيم وصوته ومهابته:

ــ "أيها الإخوة الأرض لنا لمن يعملون فيها، قضينا على الإقطــاع والإقطاعيين، قضينا على الاستغلال والاستغلاليين"، أى والله صدق

أبو خالد، أنى بقى ساعتها إيه، الكلمتين دول خيشوا فى نــافوخى أوى، عنها وممسكتش نفسى وقمت وقفت وسط الخلايق المجمعــة فى الصوان من كل المديرية، وقلت بصوت زى الرعــد: يعــيش الزعيم جمال عبد الناصر قاهر الإقطاع ونصير الفلاحــين، عنهــا وكل البلد قالتها ورايا بصوت ارتج لــه الصــوان، وفــى وســط زغاريط النسوان اللى كانت متجمعة ورا: " يعيش الزعيم جمــال عبد الناصر قاهر الإقطاع ونصير الفلاحين"، عنها ولقيت أبو خالد بيبص لى، أى واللهِ، بيبص لى وبيتبسم قوى، أترنه يا ولاد كــان لسه فاكرنى من يوم صوان الباشا الكبير أبو الحمايل.

أحد رفقاء الجوزة وهو يمد الجوزة باتجاه "أبو منتصر":

ــ نصير الفلاحين دى وعارفينها من ســاعة مــا وزع الأرض ع الغلابة، إلهى يجازيه عننا كل خير أبو خالد، إنما إيه بقــى قــاهر الإقطاع دى يا أبو منتصر؟

أبو منتصر يتناول منه الجوزة دون أن يقرب بوصتها من فمه:

ــ ما أنى كنت باسمعها كده من مولانا فى الجامع فى درس العِشا وهو بيدعي لزعيمنا بالنصرة، وإنه مؤيد بجند من عند الله. ما هو

إنت يا واد يا حسنين واد فلتان، لو كنت بقى بتــداوم علـــى درس العِشا معانا فى الجامع كان كلام مولانا نور مخك الضلِّم.

يقرب أبو منتصر بوصة الجوزة من فمه ويسحب عدة أنفاس متلاحقة، وباليد الأخرى يرفع لفمه كوب الشاى الذى برد، لنسيانه له فى يده واندماجه فى الحديث، يلقى فى جوفه كوب الشاى دفعـــة واحدة، ويلاحقة بسحب عدة أنفاس من الجوزة، فيدخل فـــى نوبـــة سعال حادة ومتواصلة وما بين نوبات سعاله وبأنفاس متقطعة وهو يلهث كأنه فى سباق جرى، يواصل حديثه:

ــ هو احنا صحيح رايحين، بس اللى يصبرنا إن ولادنا هيعيشـــوا الهنا دا كله والله وهنيالهم.. صحيح يا ولاد صبرنا ونلنا".

"أيها الأخوة: إن مجتمعًا جديدًا يستكمل ملامحـــه الأساســـية ليكون مبعث العزة والكرامة لكل فرد فيه؛ ليكون لكل منهم حقـــه، وليكون لكل منهم فرصته، وليكون لهم جميعًا حقًا ثابتًا فى الكفايـــة والعدل".

كان يومًا مشهودًا من أيام مجد القرية، فى ذلك اليوم البعيد من عام ١٩٦١ عندما أطلق الباشا الكبير أبو الحمايل منادى القرية ليجوبها على حماره معلنًا البشارة لأهل القرية بالحدث الكبير بافتتاح كشك التلفزيون أمام السور الخارجى لقصر الباشا، والذى سيبدأ إرسال يومه الأول فى القرية بنقل خطاب الزعيم بمناسبة الاحتفال بالعيد التاسع للثورة.

بدأ أهل القرية يتبادلون التهاني والقبلات، فهاهي قريتهم التي لم تكن قد دخلتها السينما بعد، يدخلها هذا الصندوق العجيب الذي سيرون من خلاله أفندية وكبارات المحروسة رأي العين بالصوت والصورة، وبعد أن عرفت المحروسة هذا الصندوق العجيب بعام واحد. رفقاء الجوزة على المصطبة الطينية يؤكدون على كلمة "أبو منتصر" الأخيرة: " ما صحيح يا ولاد مالروس اتساوت خلاص". ويكمل أحدهم: " حد كان يصدق إن بلدنا دي تيجي على بال الزعيم ويفتكرها بالتلفزيون؟

- "بقينا راسنا براس المحروسة لزم" .

صحب أبو منتصر ولده ذا الأعوام الخمسة وانطلق مع كل أهل القرية لاهثًا صوب قصر الباشا، كان الباشا قد جهز الساحة

الخارجية أمام السور الذى نُصب عليه الكشك وفرشـــها بالرمـــال وصنع عدة دكك خشبية رُصت فى الساحة ليجلس عليهـــا رجـــال القرية، بينما احتشدت النسوة والصبية والأطفال والبنات فى دائـــرة كبيرة فى الخلفية تفترش الأرض، ومر للكشك ســـلك مـــن مولـــد الكهرباء الضخم الملاصق لسور القصر، والذي كان وصوله للسور منذ عدة سنوات أعجوبة تحاكت بها القرية لعدة شهور، حيث نصب الباشا على السور أعمدة إنارة بلمبات الكهرباء اللي بتنور من غير شريط وجاز، وسمعوا للمرة الأولى صوت الراديـــو مـــن داخـــل القصر وهو يقول: "هنا القاهرة". ولم يكن يزعجهم من المُولّدْ الذي أطلقوه عليه "وابور الباشا" إلا صوته المرعب الذي يظـــل يعـــوي طوال الليل وحتى شروق الشمس.. مع الإطلالة الأولى للـــزعيم، انطلقت زغاريد النسوة وتكبيرات الرجال.

"قلت لكم: إن المستقبل يصنعه الشعب، أى فرد فى هذه الأمة ليس إلا صفحة فى تاريخ هذه الأمة، الشعب لازم يعـــرف أهدافـــه ومسئولياته ويحددها ويدافع عنها، الشـــعب لازم يعـــرف طريقـــه ويسير فى هذا الطريق، الشعب لازم يحمى المكاسب اللى حصـــل عليها لأنه هو الخالد، لن يكون الخلود لفرد أو لأفراد، ولكن الخلود

للشعب وحده، ولتبقَ هذه الأمة العربية خالــدة كريمــة عزيــزة. والسلام عليكم ورحمة الله".

مع نهاية خطاب الزعيم انطلقت زغاريد النسوة، وكأنهن فى عرس، ونهض الرجال من جلستهم، وكأن الزعيم يخطــب فــيهم مباشرة، وصاحوا فى اتجاه الشاشة، بصوت كالرعد: "يعيش الزعيم جمال عبد الناصر نصير الفلاح".

فى اليوم التالى استبدل كل أطفال القرية ألعابهم التقليدية من حجلة وعصفورة ونط الحبل واستغماية، وكونوا حلقات تدور حول بعضها يغنون فيها: " وطنى حبيبى الوطن الأكبر، يوم عــن يــوم أفراحه بتكتر"، هذا الأوبريت الذى حوى كل مشاهير نجوم الغنــاء فى زمنهم، وأذاعه التلفزيون عقب افتتاح التلفزيون فى العام السابق بعد خطاب الرئيس، وأصبح "راكورًا" ثابتًا يذيعه التلفزيون تلقائيًّــا بعد كل خطاب للرئيس.

أبو منتصر الذى كان يرى الخيالات المتحركة على الشاشــة من عمل الشيطان، ولا يحب المسخرة والأغانى والكلام الفاضــى، حرم على نفسه وولده مشاهدة كشك التلفزيون، إلا عنــدما يكــون هناك خطاب للزعيم، لكن منتصر كان يســتغل، جلســات الكيــف

الطويلة لوالده على المصطبة، ويتعلل بقضاء أى طلب لوالـــده أو لأمه ويذهب ويتربع أرضًا فى أقرب مكان من الكشك، ويبحلق فى الصور المتحركة المنعكسة على الشاشة، وغفيـــر الكشـــك ينهـــره ويطلب منه الجلوس فى الخلف مع الولاد والبنـــات، لكـــن الولـــد المولود بعلة ضعف البصر كان يرى الصورة مدغششـــة عنـــدما يرجع إلى الخلف. يتغاضى الأب عن عقابه على التأخير؛ فهو الواد الحيلة اللى جه بعد البنات وهيكون سنده، وعلى الرغم من مجـــيء مصباح فيما بعد، فإنه ظلت لمنتصر مكانة خاصـــة؛ يعنـــف الأم عندما تقسو عليه لمصلحته، حتى عندما أخبرته إن الواد بيزوغ من المدرسة، طلب منها أن تترك له الموضوع ليعالجه ولم يفعل شيئًا، وكأنه تخيل إن الواد من نفسه وشيطانى كده سيصل دون تعب إلى أعلى المناصب، فقد تغير الزمن وأصبح هناك أبو خالد اللى مـــش هيرضى لولاد الناس البهدلة.

بدأ منتصر التزويغ من المدرسة مبكرًا؛ لأنـــه يجلـــس فـــى الفصل، فيرى الحروف على السبورة متداخلة تلفها ضبابية تحجب الرؤية الواضحة فلا يفهم ما يقوله المدرس، وعندما طلبت الزائرة الصحية أن يُحضِر أمه معه لأمر مهم، وأخبرتها بإن الواد لازم له نضارة، هاج الأب وماج، وأقسم طلاق تلاتـــة ألا يرتـــدى ولـــده

النضارة، لأن الأصدقاء أخبروه أن النضارة دى ــ والعياذ بالله ــ بتجيب العمى، وظل الأب على عناده حتى دخل الشـــاب منتصـــر فصول محو الأميه التى نظمها الشاب أحمد، الذى كان يُتبع اســـمه على لسان أهل البلد بالشيوعى فصارت كنيته، وأخذه أحمد لطبيب صديق له بالبندر وصنع لمنتصر نضارة على حســـابه الخـــاص، وظل الأب بعدها لشهور طويلة يضحك كلما رأى ولده والنضـــارة على عينيه.

كان يومًا أغبر فى طفولة منتصر، عندما اعتدل والده فـــى تربيعته على المصطبة، ووضع كوب الشاى الفارغ جانبًا، وســـلم بوصة الجوزة لمن أصابه الدور، ومال بجذعه قليلًا وســـحب مـــن تحت الحصيرة المفروشة على المصطبة جرنـــان الأهـــرام اللـــى اشتراه أولة امبارح م الواد محروس سريح الجرايد، واتجعص فى وسط القعدة وقال لهم: "هنادى ابنى منتصر يقرا لكـــم الجرنـــان، عشان ينور لكم إمخاخكم الضِّلْمة وتشوفوا الدنيا من حوالينا بيجرى فيها إيه.. يلا يا منتصر، اقرا لنا الأول إيه اللى كتبه الأستاذ هيكل الإسبوع ده".. يمسك منتصر الجرنان يقلب فيه يمين وشمال، ونص ساعة وأكتر واللى ربنا ما فتح عليه بكلمة يبل بيها ريق العينـــين المبحلقة له مستنية الفرج.

الصبى منتصر ينصت باهتمام إلى حكاية الأب المتكررة مع ملل ظاهر على باقى أفراد الأسرة الملتفين حول طبلية العشاء قليلة الزاد، ووسط سعاله المتقطع يواصل الأب بحماسة وانبهـــار كأنـــه رأى الزعيم فى التو واللحظة: " دا كان ييجى من عشـــرة اتناشـــر سنة كده، قدام قصر الباشا الكبير حافظ أبو الحمايل، اللـــى كـــان أتخنها راجل فيكِ يا بلد ما يتجرأش يعدى من قدامه، ولو صـــادفت سوا كان على رجليه أو راكب بهيمة ينزل ويطاطى راسه ويفضل يقرا فى المعوذتين لحد ما يعدى زمام القصر، وآه لو إنت مش لادد على حد من خدم القصر، يسحبوك من رجليك زى البهيمة ويعلقوك فى الفلكة وهاتك يا ضرب بالكرباج السودانى، ويقولـــوا عليـــك: حرامى جاى تسرق أرض الباشا.. الباشا قام صوان عمر البلد مـــا شافت زيه فى أتخنها فرح، وعزومة ودبايح تحت رجلـــين ســـى نجيب وزملاته الظباط الأحرار، واتعلقت الزينات ونوَّر الصـــوان ولا خمسميت كلوب.. ما هو ماكانتش الكهربا لسه دخلت النـــواحى دى.. شوف ربك قادر على كل شيء.. كوبس ومفتاح يقيدوا النور طوالى وحنفية جوا الدار تاخد منها المية الحلوة وقت ما تحب.. كل ده جه بعد ماتولدت يا منتصر.. كان قدومك قدم خير ع البيـــت ده أى والله.. لأ، بيت إيه دا كان ع البلد كليتها.. مصر المحروسة أم الدنيا مش بس الكفر بتاعنا.. طب دا أنى وأنى أدك ياد يا منتصر..

ولا بلاش أدك دى وأنى متجوز أمك، أهى تحوش عنى الكدب لـو كنت بكدب، كانت تطلع ع الترعة تملالنا الجرة وتصـفى الميـة بخرقة هدوم قديمة وشوية شبَّة وإشرب وتوكالك علـى الله.. والله أيامكم كلها خير ولسه هيعم الخير على زمن ولادكم، صبرك بـس لما السد العالى يخلص، الكهربا دى هتبقى فى كل البيوت بـبلاش، لأ وكمان المية الحلوة.. تفتح الحنفية ليل ونهار وآخرة الشهر تدفع ملاليم، ما كل ده من خيرات السد العالى.. أى والله، صحيح راجل دماغه توزن بلد، أهو مشروع زى ده كان غايب عننـا فـين؟... إيه.. إحنا وأبهاتنا اللى شربنا المر كله.. إلهى يعمر بيته ويجازيـه عننا كل خير.. كان كتفه بكتف سي نجيب باشا، عينيه زى الصقر تلبِّش اللي يصادف وتيجى عينه في عينيه، وفجـأه قـام ومسـك المكرفون وحسيت إنه بيبص لى أنى بالذات وبيقول لـى: " ارفـع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد" وأيمانات الله صدق مولانا لما قال يوميتها: هو دا الزعيم".

لا ينسى منتصر ذلك اليوم التحولى فى حياته، كان قد مـر على خروجه من الجيش بالمعافاة حوالى ثلاثة أعـوام ذاق فـيهم الأمرين بين شغل الفاعل وسريح موسمى حسب موسم الخضار أو الفاكهة على عربية يد يؤجرها له المعلم حسونة باليومية التى تأكل

معظم مكسبه وتترك له الفتات اللى يا دوب بيمشى البيت جنب الحيط؛ حتى لا تتسرسب فلوس شِوار البنات والتى بدءوا بالفعل يأكلون منها تحت ضغط الحاجة.. شاف بعينيه عيال أصحابه سافروا ليبيا والعراق والخليج وكل يوم والتانى يبعتوا لأهاليهم شيء وشويات، قرر أن يفاتح الأب فى موضوع السفر عشان حِمل البنات اللى هيحتاجوا ياما وقت الجهاز والشِّوار، كان طمعان فى فلوس الأرض أبوه يسلفهاله يسافر بيها وأهو سنة والتانية ويبعت للبيت واخواته خيرات ما ليها أول من آخر، تعوض سنين المُر، هو بس لمَّح إنه عايز يسافر عشان مستقبله ومستقبل أخواته.. كان الأب فى رقدته الأخيرة، فقد البصر تمامًا وقلبت معاه البلهارسيا بتليف فى الكبد، وهجم عليه السكر، وقبل أن يسترسل، بدأ الأب بالكلام بصوت متقطع هامس أنهكه السعال الذى أصبح متواصلًا، ومن شدته تحول إلى زفرات مكتومة تقطع أقصر جملة إلى عدة مقاطع متتالية، يأخذ بين كل مقطع وآخر وقفة يخرج فيها إحدى الزفرات المكتومة ويستنشق دفقة أكسجين تساعده على نطق المقطع والتأهب للزفرة التالية.. يتلمس ولده وكأنه يتأكد أن لديه بالفعل ولدًا اسمه منتصر:" إنصاف جاى لها عريس يا منتصر، إخواتك كبروا وبسِلو بلدنا بقوا دلوقتى عوانس.. أنى عارف إن الدنيا يا بنى ملطشة معاك أد إيه.. إن بعد العسر يسرا، وبشر الصابرين.. دا

كلام ربك يا منتصر.. عارف يعنى إيه؟.. يعنى آخرها خيـر إن شاء الله.. إنت واد مُرْزق وربنا شايل لك خير كتير، كتيـر أوى، لأنى وأمك والله راضيين عنك يا بنى.. إنصاف أختـك يـا بنـى لازمها شِوار، مهما كانت الظروف هى بنت ولازم تفرح.. إنـت دلوقتى راجل البيت والقولة قولتك والشورة شورتك.. ربنا يقـدرك يا بنى وتستَّر إخواتك كلهم. معلهش يا بنى.. أنـى مـا كنـتش أد الأمانه وقصرت فى حقك إنت وإخواتك.. لكـن دى إرادة ربنـا، العين بصيرة والإيد قصيرة.. الدور عليك إنت بقى تكمل المشوار.. وصيتك إخواتك البنات يا بنى، إنت دلوقتى سندهم وراجلهم".. قدره أن يواصل مشوار أبيه، فهذه هى أيامه الأخيـرة، كيـف يتـرك المركب فى عرض البحر وينجو بنفسه؟ وردد فى سره: " رب هنا رب هناك"، ورفع صوته عاليًا بجوار أذن الأب الذى أصبح كذلك يسمع الآن بالكاد: "إنصاف هيجيلها أحسن جهاز يا با، وكمان بقية إخواتى، وغلاوتك يابا لتعيش فى وسطينا لحد ما تشوف ولادهـم حواليك وببركة دعاك إنت وأمى لأعملهم أفراح يتحاكى بيها الكفر كله ". فجأة يشرق وجه الأب ويهدأ سعاله: " ولا تدرى نفس مـاذا تكسب غدًا.. والله قلبى حاسس إن بكره ربنا هيفتحها عليـك مـن وسع.. ساعتها تبقى تفتكرنى يا وله وتترحم عليَّه.. عايزك يا بنى الولد الصالح اللى ربنا أكرمنى بيه عشان يفضل حسـنة جاريـة

تدعيلى بعد ما أموت، خلينى يا بنى دايمًا فى بالك وادعيلى على قد ما تقدر، أنى قصرت قوى فى حقكم يا بنى وإنت هدية ربنـــا ليـــه عشان بدعواتك هتكفرلى عن ذنوبى، ما هو إنت ساعة ما تولدت، اتغيرت الدنيا بين يوم وليلة وبقت دنيا غير الدنيا.....". بـــدأ الأب يسترجع مع ولده ذكريات مولده، حكاية عمره التى توقف عنده بها الزمن، ومنتصر يراقبه وينصت باهتمام وكأنه يسمع الحكاية للمرة الأولى، تعطيه الحكاية راحة تفوق الوصف، فمؤكد أن كل هذا الذى يحكيه الأب لم يحدث هكذا صدفة؛ لازم لحكمة وبعدين أبوه راجل طيب وساعات بيحس إنه مكشوف عنه الحجاب.. يلا مـــين عـــالم بكرة فيه إيه؟

" لن أسمح أن يُفرض على هذا الشعب الإلحاد. وعلى ذلك فقد سمعتمونى فى الماضى أتحدث إليكم وشجبت هذه الأعمال، وقلت أن من لا إيمان له لا أمان له.. أقولها الآن.. أضعها أمامكم لكى تُسجل فى مضابط مجلسكم.. ولن يوضع فى منصب أو فى أى مكان يؤثر على تكوين الرأى العام أو تكوين أفكار الشعب ملحدًا أبدًا طالما أنا فى هذا، ليس معنى هذا أنى أعادى أحد.. أبدًا.. أنا لا أريد أن أعادى أحد.. أبدًا.. وإنما وكما قلت لكم أنا حريص يوم أن أُسأل وأنا ولى الأمر هنا ماذا فعلت؟ حريص أن أؤدى الأمانة وأن أؤدى الرسالة.. أبدًا لن أتركها ولو اقتضى الأمر أن أنزل بنفسى إلى الشارع لأقاتل فى هذا.. إننا شعب، الإيمان جزء من كياننا وتكويننا ولا يمكن أن نسمح أبدًا لأية قوى مهما كانت هذه القوى أن تزلزل هذا الإيمان".

" من خطاب للرئيس السادات أمام مجلس الشعب عقب أحداث ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧".

يمتلك منتصر بداخله ساعة بيولوجية غاية فى الدقة بالنسبة إلى مواعيد الصلاة، على الرغم من أنه لا يضع ساعة فى معصمه، هذا أوان الظهر، وحتى يتأكد يتحين فرصة مرور أقرب صاحب لحية ويسأله منتصر: " الضهر وجب يا شيخ؟"، " نعم وجب يا أخى"، فيترك بروازه وينطلق رهوانًا ناحية غرفة المشرف، يقف على بابها ويطلق جعورته بأقصى ما تحتمل أحباله الصوتية: " الله أكبر.. الله أكبر..... حى على الصلاة". يدخل المكتب دون استئذان، وينظر إلى المشرف نظرة تحدٍّ يتمنى فيها أن يعترض طريقه، ويسحب سجادة غرفة المشرف ويضعها أمام الباب ويبدأ هو بالصلاة، وقبل أن يهم بالسجدة الأولى يكون قد تحول إلى إمام خلفه عشرات المصلين.

سنوات طوال ظل السؤال الملح الذى يؤرق منتصر هو : لماذا لا تظهر له زبيبة صلاة، ليمتلك: " سيماهم فى وجوههم من أثر السجود" ككل المتقين الذين تنير جبهاتهم هذه الزبيبة المميزة، ولما اشتكى الأمر لإمام مسجد نصر الدين، نصحه بإطالة السجود قدر المستطاع، ولا يستسلم لإجراء السجود الناعم على السجاد الوثير، بل يسجد على الجزء من المسجد المفروش بالحصير الخشن المتسخ، وزاد هو من عنده أن اعتاد عند السجود، على حك

جبهته بعنف فى الحصير الرطب القريب من دورة المياه والمشبع بخطوات أقدام المصلين الآتين من الميضة، تنز المياه من أقدامهم وأيديهم، وأخيرًا بدأت علامة الجودة تنير جبهته، وتصبح أحد أهم عوامل اختياره عندما يأتى الزبون.

لا يخرج منتصر من شغله فى المحطة إلا بمتع ثلاث؛ التسمر أمام برواز مولوده الأشقر، وتتبع المؤخرات اللى بتشغى بيها المحطة ليل ونهار، وصلاة الجماعة التى تمنحه هذا التميز بأن يكون إمامًا للعشرات واللى منهم المهندس والدكتور والمحامى، فهو عند الصلاة لا يرتضى إلا بكونه إمامًا ــ وهو مقام أصبح الآن حصوله عليه أكثر سهولة بعد إطلاق اللحية، وبزوغ شمس زبيبته العملاقة ــ أو على الأقل يكون فى الصفوف الأولى، عندما يصادف أذانه وجود أحد المعممين، او من هو أطول منه لحية وأعمق زبيبة، عادة علمها له والده الذى كان يصطحبه إلى المسجد طفلًا، وإذا تصادف ووصلوا إلى المسجد وبه صفوف متراصة يتخطى الأب الرءوس وهو يسحب ولده خلفه حتى يصل به إلى الصف الأول، عندما سأل والده عن السر، ردد الأب على مسامعه ما يُروى أنه حديث لسيدنا النبى: " لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا". من

كثرة تكرار الأب للحديث مع كل رحلة لاهثة يقطعها مع ولده للمسجد فور سماع التكبيرة الأولى، حفظه منتصر عن ظهر قلب دون أن يفهم منه إلا أن رسول الله يأمرنا بالتسابق على الفوز بالصف الأول.

" كنت قاعد فى الصف الأولانى.. فكرى مشغول بأمك، ومولانا ما لوش سيرة غير الزعيم المؤيد بنصر الله وملائكته.. ساعتها حسيت إنك جاى بإذن الله، وربنا باعت لى البشارة على لسان سيدنا.. آل على رأى مولانا، أهو الزعيم ده بجلالة قدره واللي بتهتف له الخلايق دي كليتها، أبوه لا كان أمير ولا وزير؛ دا كان موظف على قد الحال.. يعنى راجل على باب الله زينا.. يا سبحان الله.. مش جايز تلِف الإيام وأبقى أنى كمان في يوم م الإيام أبو الزعيم.. سبحانه قادر على كل شيء.. هو العَلام اللي خلاه زعيم ملو هدومه.. والله يا منتصر لو جيت بحق الإيام المُفترجة دي لأبيع اللي ورايا واللي قدامى شالله أشحت لحد ما وصلك في العلام لأعلى المراتب.. بس منين يا حسرة دي العين بصيرة والإيد قصيرة.. يوه يا أبو منتصر، ومين قال لك إن الإيد هتفضل قصيرة؟ دا ربك قبل ما يبلى بيدبر وبلدنا رجعت لينا والخير هيعم.. بعدين إنت هتكفر يا جدع؟ دى العيال رزق ماله أول من آخر:

"نحن نرزقهم وإياكم".. دا كلام ربنا مش كلامى، وأهـــى البشـــاير هالة أهى.. والله وجاى يا منتصر فى وسط شنة ورنة تقول إنـــك هتبقى مسعد يا وله، وحظك أحسن من ميلة بخت أبـــوك.. الله يـــا أولاد.. أبو منتصر.. رنتها فى ودانى كـــروان.. أبـــو منتصـــر.. سامعها من كل أهل الكفر.. تعالَ إنت بـــس الأول يـــا منتصـــر، وساعتها ربك هيحل المعقودة.. ماانت جاى وفى ركابك النصـــر.. عشان كده عايزك تركز فى العلام يا وله.. هو ده مستقبلك.. سيبك من لم الدودة والواد حسونة اللى بيضحك عليك بالتلاتـــه أبـــيض.. الشغل فى المسامحة بس.. فاهمنى يا وله؟ حسك عينك تزوغ تانى؟ مين كان يصدق إن أبوك اللي كان بيشتغل عبد بلقمته فـــي أرض الباشا، يبقى بين يوم وليله صاحب أطيان، وراسه براس الأعيـــان؟ سبحانه.. قادر على كل شيء.. اعذرنى يا بنى إنى ما صـــبرتش عليك فى مشوار العلام.. بس إنت برضه كنت واد لعبى.. الحمـــد لله على كل شىء.. خليتك راجل ملو هدومك، واللى قصَّرت فيـــه تكمله إنت بقى مع ولادك ".

يضحك منتصر ضحكة ساخرة وهو محـــدق فـــى البـــرواز ويشوح بيديه كأنه يخاطب شخصًا أمامه.. يتطلع إليه العابرون ثـــم يجرون مبتعدين عن طريقه لاعتقادهم أنه مجنون.. يسترجع نفخة

والده وقعدته متجعصن على المصطبة الطينية أمام بيتهم وهو يقول بتفخيم زائد: "أطيان"؛ هذه الأطيان التى لم يرَ منها منتصر أى تغير يطرأ على حياتهم، فحتة الأرض جت بعد م الراجل صحته بقت فى النازل، وكان صغيرًا لم يسقهِ الأب بعد أسرار الفلاحة. ولما بـدأ مرحلة الصبا، لم يكن الأب يملك من الصحة وطولة البال ما يمكنه من نقل أسرار المهنة إلى صغيره، بس أبو منتصر كمـان كـان فرحان وهو عنده مستأجر يمر عليه بين يوم والتانى، ويقـول لـه بأمارة وشخطة زى بتوع الباشا أبو الحمايل: " إيه الأخبار يا واد يا حمدان؟ ما تقوم يا واد كده من رقدتك دى تحت الجميزة وشـوف شغلك.. الأرض تحب المراعية يا وله". الله يرحمك يا با.

يلقى منتصر تحية المساء على مولوده المتربع على عـرش البرواز المضيء، ويدور دورته ليصعد من السلم المواجه لمبنـى الخارجية القديم، أمام مبنى جامعة الدول.. لساه فيه الداء المهبـب، يبكى فى الصلوات وهو ساجد ويستغفر ربه ويطيل فى السـجود، وتانى يوم ترجع ريمة لعادتها القديمة. يعدى أتوبيس ورا التانى لحد ما ييجى أتوبيس زحمة، ساعتها يشعر براحة الضمير، فما يحـدث يتم رغمًا عنه فالدنيا زحمة.

تمر ساعة ولا يأتى أى أتوبيس لا زحمة ولا غير زحمة.. يلاحظ عشرات من سيارات الأمن المركزى الضخمة تقف على الصف المجاور لمبنى الخارجية القديم، وعربيتين إلى جانبه فى موقع المحطة.. يتلفت حوله، لا يوجد ركاب ينتظرون الأتوبيسات معه كالمعتاد.. لاحظ كثافة انتشار العساكر على الصفين.. يقترب منه أحد الاشخاص متنمرًا.. شكله كده أمن، فعلى الرغم من ارتدائه القميص والبنطلون، فإن فى يده هذا الجهاز الذى تصدر منه أصوات مشوشة ويتكلم فيه بالسيم ويتقصع فى مشيته على طريقة البنت لواحظ ليعطى الفرصة لكل المارين لرؤية الطبنجة التى تتأرجح أعلى مؤخرته، والتى يقوم بالتحسيس عليها بين لحظة وأخرى فى حركة لاإرادية، يثبت بها لمن حوله أنه يتميز عنهم بهذه الطبنجة:

ــ إنت ياحاج.. أيوه أنت يا با.. إيه أطرش ما بتسمعش، ولا عبيط ولا بتستعبط فى دين أم اليوم الأغبر ده؟ مالك واقف متسمر هنا ليه؟

ــ أنى؟

ــ أمال أمى، أيوه إنت يابا، هو فيه غيرك فى أم المخروبة دى؟

ــ أنى مستنى الأتوبيس.

ــ دين أم العبط، هى ناقصة هطل.. إنت أعمى ما بتشوفش، آه، واضح من قعر الكوباية اللى إنت لابسها دى.. أنا مراقبك، بقالك أد إيه واقف يا بنى آدم؟.. شفت دين أم أى أتوبيس معدى؟

ــ إيوه صحيح.. خدت بالى، طب وأنى كده ها روَّح إزاى؟
ــ وأنا مال أمى.
ــ بس أنى لسه راكب من هنا إمبارح.. هما نقلوها؟
ــ مين دى اللى نقلوها؟
ــ المحطة.

يزيحه الشاب بعصبية فى اتجاه الكوبرى وكأنه يزيح كومــة زبالة، يكاد منتصر على أثرها ينطرح أرضًا.

ــ يلا اطلع كدا لقدام، لتروح فى خبطة ويحسبوك علينا بنى آدم، امشى مع الناس الماشية دى، واركب من جنب الأوبرا.. مفــيش حاجة هتقف هنا.. العملية مش ناقصة بلاوى.. يلا يا عم اتعتع من هنا بدال ما ألمك فى البوكس، وإنت راجل كبير مش حمل بهدلة.

قبل أن يتحرك منتصر، سمع الجهاز اللى بيوش، تصدر منه أصوات متداخلة متقطعة، يمسك الشاب الجهاز ويقربه مــن فمــه ويهمهم بعدة كلمات غير مفهومة ثم ينطلق بسرعة البــرق ناحيــة السور اللى قاسم الشارع نصين، وفجأة يجد منتصر وكأن الأرض انشقت عن عشرات الشباب والفتيات يقفزون السور الحديدى الذى يقسم الشارع ويتقدمون نحوه.. وجد نفسه فجأة فى وسطهم.. يتطلع إلى لوحات ممتلئة بحروف متداخلة، كذلك لوحات تحمل صــورة الزعيم.. يتداخل صياحهم .. يصيحون بكلمات مبعثرة فى صــوت صاخب، لو استمعت إليه دون رؤيتهم لظننته لعدة مئــات ولــيس لعشرات.. انتظمت الصفوف وبدأ الشباب يرددون بصوت غنائى: " مش هنسلم مش هنطاطى، إحنا كرهنا الصوت الواطى".. " يا حرية فينك فينك، أمن الدوله بينا وبينك".. أطربه تنغيم الكلام، فبدأ يردده معهم ولكن فى سره.. طوال الطريق وهو يردد الكلمات وعنــدما يجد الطريق فاضى يرفع صوته عاليًا وكأنه فى مظــاهرة فرديــة ويتلفت حوله، ويضحك ويخرج لسانه، ويردد لنفسه أيضًا بصوتٍ عالٍ: "بايِّنِى اتجننت".. شعر بالخجل كمن تم ضبطه عاريًا، عندما اندمج وهو على كوبرى قصر النيل وكان يردد وهو شبه مغمــض العينين ويلوح بقبضة يده عاليًا: " إحنا كرهنا الصــوت الــواطى"، فاصطدم بأحد العابرين الشباب الذين كانوا يهرولون نحو الميدان،

وقال له الشاب بعصبية وسخرية: " يا با فتح وانت ماشى"، وتركه وواصل طريقه ناحية الميدان مهرولًا، بينما منتصر يتجــه نحــو محطة الأوبرا.. تكرر المشهد أمامه أكثر من مرة فى الأيام التالية، وجد عينيْه تدمعان تأثرًا.. الولاد والبنـــات يتقـــافزون مـــن فـــوق الأسوار كالعفاريت.. يتراصون فى صفوف تتحول إلـــى دوائـــر متداخلة ويقطعون الهتافات بالتصفيق عدة مرات بشـــكل منـــتظم.. أعجبه شكلهم ونظامهم.. يتطلع إلى صورة الزعيم فـــى أيـــديهم.. الصورة الوحيدة التى كانت معلقة على جدار غرفة بيتهم الطينـــى، حتى أبوه لم تكن له فى الغرفة صورة، فقط الزعيم.. صورة بحجم البوستر الكبير اشتراها الأب من الواد محروس ســـريح الجرايـــد بالكفر يوم وفاة الزعيم وعلقها على الحائط محاطة بلوحات زخرفية لآيات من القرآن الكريم: "طب الولاد دول إيه اللى فكرهم بيـــه؟". يتذكر والده وجلسته المتباهية أمام الطبلية، وهو لا يمل من تكرار حكاية عينيه التى وقعت على عينى الزعيم: "الله يرحمك يا با".

لاحظ تجمع جنود الأمن واقترابهم منهم، وهـــم يتحركـــون بحركة استعراضية مع همهمة وزومة قوية من أفواههم والعصـــى الكهربية التى جرب لسعتها مرة مصادفة في أثناء وقوفه فى الزحام بانتظار الأتوبيس كهذه المرة، وظهور الشباب فجأة أيضًـــا كهـــذه

المرة، لكن أخذه الفضول للبقاء وسطهم ليعرف نهاية الأمر فكـــان نصيبه لسعة جعلته ينتفض ويفر مذعورًا من وسط الزحام.. انسلَتَ من بين الشباب وفر مهرولًا فى اتجاه الكوبرى ليأخذ الأتوبيس من أمام محطة الأوبرا.. عند وصوله إلى محطة الأوبـــرا، لاحـــظ أن بعض الشباب يهرولون فى اتجاه التحرير رافعين لوحات بعضـــها عليه كلمات كثيرة متلعبكة، والبعض الآخر عليه صور الزعيم.

ـ ٧ ـ

" النهاردة إحنا مستعدين.. مستعدين ـ أيها الأخـوة ـ أن نقاتـل والموت حق، وأنا فى حرب فلسطين ـ كمثل من الأمثلة ـ كنـت موجود فى الفالوجا زى ما أنتو تعرفوا، خمسة أشهر غارات جوية متتالية، خمسة أشهر ضرب مستمر بالمدفعية، خمسة أشهر هجـوم وعمليات حربية.. مامتش.. ليه؟ ماكنتش طبعًا قاعد فى الخنـدق.. كنت باستمرار بره، لكن الأمر ده بيد الله، مافيش واحد أبدًا هيقدر يقرر أجله.

حنقاتل.. أنا هنا فى القاهرة ضد أى غزو، سأقاتل معكم، أنا هنا موجود فى القاهرة، ولادى موجـودين معكـم فـى القـاهرة، ماطلعتهمش بره، ومش حاطلعهم بره، وأنا موجود معاكم هنا فـى القاهرة .

حنقاتل ـ زى ما قلت لكم إمبارح ـ لآخر نقطة دم، لن نسلم أبدًا، بنبنى بلدنا.. بنبنى تاريخنا.. بنبنى مستقبلنا.

النهاردة دا شعار كل مصر.. إذا كانت بريطانيا بتعتبر إنها دولة كبرى وفرنسا بتعتبر إنها دولة كبرى، إحنا شعب مؤمن، حيكون شعارنا دائمًا الله أكبر.. الله يقوينا.. الله ينصرنا، نعتمد على الله وعلى أنفسنا وسنجاهد ونكافح ونقاتل وسننتصر بإذن الله.. الله أكبر.. الله أكبر".

"من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر بعد صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر أثناء العدوان الثلاثى"

٢ / ١١ / ١٩٥٦

" الله أكبر.. الله أكبر.
الله أكبر فوق كيد المعتدى
والله للمظلوم خير مؤيد
أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى
بلدى ونور الحق يسطع فى يدى
قولوا معى.. قولوا معى
الله الله.. الله أكبر
الله فوق المعتدى".

كان صباحًا تحاكت به القرية شهورًا، صباح تلك الجمعة البعيدة من عام ٥٦ ، عندما خرج الباشا الكبير أبو الحمايل راكبًا الكارتة المكشوفة التى يجرها " فارس " حصانه العربى الأصيل، شاهق البياض، والذين اعتادوا أن يروه فى بعض الأمسيات ممتطيًا ظهره، متجولًا فى زمام أراضيه التى تتسع لتشمل ثلاثة أرباع زمام القرية. خرج الباشا صبحية هذه الجمعة على كارتته المكشوفة بجواره مندوب الجيش، تتقدمهم فرقة حسب الله بأدواتها النحاسية، وهم يعزفون موسيقى نشيد" الله أكبر"، وخلفهم جموع من الشباب والشيوخ يرددون بحماسة منقطعة النظير كلمات النشيد، التى يذيعها الراديو الكبير من سراى الباشا ليل نهار؛ فقد كانت الإذاعة لاتكل

عن إذاعتها، عقب نشرات الأخبار المتوالية، والكل يتحاكى بما أعلن عنه الباشا بأنه سيمنح كل متطوع للقتال فى القناة جنيهًا كاملًا فور تسجيل اسمه فى كشوف المتطوعين بدوار العمدة، وقد جاءه مندوب الجيش صباح ذلك اليوم لاستلام الشيك الذى قرر التبرع به للمجهود الحربى وقيمته ألف جنيه كاملة، وانتهى مطاف الموكب عند المسجد الكبير بالقرية؛ لأداء صلاة الجمعة.

بعد الدعوات المتوسلة بجاه المصطفى لنصرة الحق المبين ودحر الكفرة الملاعين، أخبرهم الشيخ الواثق من قوله والمؤيد بكلام الله، والعالم ببواطن الأمور، أن الزعيم ولى من أولياء الله الصالحين: "أي والله، وإليكم الدلالات الربانية.. إن اختياره للأزهر الشريف لمن الفتوحات الربانية، مش كان ممكن يعلن بيانه من على فراش الملك الوثير.. في قصر من القصور اللي تركها الملك الفاسد البائد: " الله أكبر.. الله أكبر" صيحة الجموع المدوية توقف استرسال سيدنا فتأخذه الحماسة فيضرب بعصاه أرضية المنبر التي يقف عليها: " لكنه اختار المنبر.. المنبر.. راية الإسلام الخفاقة إلى أبد الدهر ولو كره الكافرون". تتجاوب الجموع فتصيح بحماسة أكبر: " الله أكبر..الله أكبر". الشيخ تأخذه الجلالة فيدور برأسه في كل الاتجاهات منتشيًا كالمجذوب: "وإن الملائكة كانت تحيط به

عندما ارتجت جدران الأزهر بصيحته المدوية: حنحـــارب ". "الله أكبر.. الله أكبر"؛ الصيحة المدوية الثالثة التي ارتجت لها جـــدران المسجد المتهالك، كان أبو منتصر أحد صناعها وأكثر المشـــاركين حماسة حتى إن الدموع انهمرت من عينيه وهـــو يرددهـــا وســـط الجموع، ولأن أبا منتصر يثق بشيخه المسنود بكلام الله، فقد آمـــن بالزعيم، وآمن أنه بجنود لن يروها سيحقق النصـــر بعـــون الله.. لولاش البلهارسيا اللي حولته لجلد على عضم وبطن منفوخ علـــى مية، ولولاش داء الربو اللي بيحش ضلوعه طول الليل، كمان اللي زاد وغطى دغبشة الصور قدام عينيه بعد المغربية، واللي بتخليـــه يتحسس طريقه للمسجد في العِشاء والفجر وبقدرة ربك يوصل بس بنور البصيرة، وإلَّا لكان الآن وسط الفدائيين في القنال ليشارك في حش رقاب الأبالسة الكفرة ولاد الملاعين.. الرجل توســـوس لـــه الشياطين أنه مقصر في حق دينه؛ لتقصيره في أداء فريضة الجهاد التي هي فرض عين على كل مسلم موحد بالله، كما يقول مولانـــا، فأخبره مولانا أن الدين يسر وليس عسرًا وأن كل ما عليـــه هـــو وأمثاله المستضعفون، مواصلة الدعاء للزعيم ليل نهار خاصة مـــع صلاة الفجر حيث يُستجاب الـــدعاء، وأن يجاهـــد بالـــدعوة إلـــى المعروف والنهى عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا: " يعنى لو شفت عيل ماشى بيتمرقع وفطران في نهار رمضان اسكعه قلمـــين

على صداغه يفوقوه ولم عليه العيال يجرسوه، ولو بياع عرفت عنه إنه ما بيصليش أو بيسب الدين ما تشتريش منه.. لو شفت راجــل طويل عريض بيسب الدين، حش رقبته بفاسك.. دهدى ما هو فاسد زى الزرعة الشيطانى اللى هتبوظ زرعتك.. تسيبها ولاتقلعها مــن جذورها؟.. وحدوا الله".. "لا إله لا الله"، يتردد الصوت فى جنبات المسجد كالرعد يكاد الصوت من قوته أن يهــدم الجــدران فــوق رءوسهم: "طبعاً مش المقصود ــ يا أحبتي في الله ــ إننا هنمشــى بقى ندبح فى بعض، إنما المقصود تعرَّفه غلطه، وإنه بكده خــرج عن الملة وتفهمه أن لا يعود إلا بكفارة.. من رأى مــنكم منكــرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وهذا هو أضعف الإيمان، وما نحن ممن يرتضون لأنفسهم بأضعف الإيمان".
جموع المصلين وقد بلغت حماستهم الذروة: " الله أكبر.. الله أكبر".
الشيخ يضرب بقبضته قويًا على حافة المنبر ويرفع يده على عــادة الحكام وكأنه يعطى إشارة للجموع بالصمت، وتطيعه الجموع على الفور: " إخوة الإيمان.. إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.. اللهم ثبت أقدامنا فى الدنيا والآخرة.. "آمين" .. اللهم زلزل الأرض تحت أقدام أعدائك أعداء الدين.. "آمين". اللهم ألهم زعيمنا وقائــدنا الصواب وأرشده إلى ما فيه خيرنا وخير كل المسلمين.. "آمين" .. اللهم أيده بجنود من عندك وهبه من آياتك نصــرًا مــؤزرًا علــى

أعدائك أعداء الدين.. "آمين"، أقول قولى هذا وأستغفرالله لى ولكم وأقم الصلاة".

"إن الله وعد بنصر المؤمنين وإقرار الحق على الباطل؛ فللباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة".."الله أكبر.. الله أكبر"، تنطلق الصيحة الهادرة من حناجر أكثر من مليون شخص يحتشد بهم الميدان فى هذه الجمعة التى سماها مذيع نشرة تسعة بالأمس "جمعة النصر".. تدمع عينا منتصر وهو يردد بعزم ما فيه من صوت، صيحة: "الله أكبر" ويتأمل كل هذه الحشود، ويتساءل مع نفسه: لو بس نص الناس دى فضلت قاعدة فى الميدان لحد ما يتطمنوا إن المطالب هتتحقق؛ ما كانش حد استجرى يهوب ناحية العيال ولا يحرق خيامهم ويأكِّلهم علقة الموت اللى بعديها فضوا الميدان.. ماهو استقلوا بالعيال.. بس الناس معذورة يا د يا منتصر، ماهى وراها أشغالها ولقمة العيش اللى بتيجى بالتيلة.. هيقعدوا عواطلية لحد إمتى والحكومة حبالها طويلة.. أهو عندك إنت أهو، لا عيل ولا تيل، بطولك إنت وحفيظة، ما أنت كمان سبت الميدان عشان لقمة العيش، بعد الواد المشرف الخول ما رفدك، سبت الميدان وكأنك يا أبو زيد ما غزيت، ورجعت لقعدة الرصيف.

يتحسس منتصر جيبه ويتأكد من استقرار الجنيهات القليلة فى مكانها قبل وقوفه فى الصف؛ لدفع ثمن الآيس كريم.. العين بصيرة والإيد قصيرة، وقت ما ربنا بيكون فارجها لا يرضى بأقل من البسكوتة تلاتة بولة، بعد حسابات لما فى جيبه والمتبقى لمرواحهم ومفاجأة حفيظة بعزومة كشرى وهما مروحين، يقرر أن يشترى بسكوتين كل واحدة ببولة واحدة بس، ما هو ما يصحش يجيب لنفسه تلاتة بولة ولحفيظة بولة.. ينظر إلى الصف المتراص أمامه، ما من أب واقف أو أم واقفة فى الصف إلا وفى يد كل منهم ما بين عيل واتنين وتلاتة وأربعة.. كل أمنيته م الدنيا حتة عيل من دول.. سبحان مقسم الأرزاق.

في تلك اللحظة الفاصلة من عمر الوطن جاءت البشارة على لسان الداية، فهذه المعافرة في المخاض دلائل قدوم ذكر وليس أنثى.. تتعالى صرخات أم منتصر، ومعها يتعالى الصراخ بالخارج: " ناصر.. ناصر.. ناصر"؛ الاسم ترتج له جدران البيت الطينية المتآكلة، فقد خرج كل أبناء القرية بعد الصلاة يهتفون باسم الزعيم وحياته، وهم في طريقهم إلى دوار العمدة لتسجيل أسمائهم بوصفهم متطوعين للذهاب إلى القنال لذبح هؤلاء الكفرة الذين تجرءوا على ديار الإسلام.. كان لترديد الاسم بهذه الحماسة مفعول

السحر على أبي منتصر، في تلك اللحظة وتحت تأثير هذه الجموع الهادرة التي كان أبو منتصر يحييها وهو جالس علـــى المصـــطبة الطينية يخرج فى عصبية دخان جوزته مع نوبات مـــن الســـعال المتقطع والبصق، ورأسه مشغول بصراخ زوجته المحمل ببشـــائر هلة الذكر، تراجع أبو منتصر عن قراره الأول وندر إن جاء الولد المُنتظر وعوضه الله أخيرًا بعد ابتلاءاتـــه المتواليـــة بالبنـــات، أن يسمى الولد على اسم الزعيم خبط لزق: "لأ.. لأ مش منتصر.. دا عبد الناصر.. معلوم أى والله، ومين غير الزعيم دلوقتى ربنا يحميه موقّف العالم كليته على رجل واحدة".

كانت بشائر النصر بادية للعيان؛ فالقرية الموعـــودة بخلفـــة البنات مع شح نتاجها من البنين، شهدت في تلك الليلة مولد خمســـة ذكور غير منتصر، أُطلق عليهم جميعاً إمـــا اســـم ناصـــر وإمـــا عبدالناصر، حتى عيلة بطرس أفندى ربنا رزقها بمولود هى كمان سمته جمال، شيخ البلد وحده هو من أطلق على مولوده الاسم ُمركَّبًا "جمال عبد الناصر".. جاء مندوب الجرنان من المحروسة ليســـجل هذه الظاهرة وكان تركيزه بعد الوليمة الضخمة التي أعدها له شيخ البلد، على ولده الذي يحمل الاسم ُمركَّبًا.. لم يشعر أبـــو منتصـــر بالغيرة من تركيز الاهتمام على صاحب الاسم المركب ووالـــده..

بعدين منين كان هيقدر يقوم بعزومة لمندوب الجرنان اللي جاى م المحروسة؟ دا يدوب قدر يدبر تمن جوزين الفراخ الشمورت اللـــي نزل إمبارح جابهم م البندر عشان يقَوِّموا الولية في النفاس بعد ما الفِره خدت فراخ البلد كليتها.. أبو منتصر كان رجلًا لا يخشـــى إلا الله ولا يجيد فنون التملق التي ترفع الناس فوق بعضها درجـــات؛ فهو ممن اشتروا الآخرة يعملون لها عملها، فخاف كـــلام النـــاس وخاف اتهامهم له بالنفاق والتمسح في اسم الزعيم لو أطلق علـــى المولود اسم الزعيم خبط لزق، فقرر بعد تردد وصلوات اســـتخارة متكررة تواصلت حتى الفجر، الوفاء بندره والإصرار على الاســـم الذي طق في نافوخه ساعة الدعاء للزعيم بالمسجد، ومـــن حســـن حظه أن مسجل الصحة لم يكن قد مر عليه بحنطوره فـــى جولتـــه لتسجيل أسماء المواليد، فالثورة كانت قد ابتدعت نظامًـــا جديـــدًا، خاصة فى الأرياف لتهرب الناس من تسجيل مواليدهم ربما خوفًـــا من الحسد خاصة إذا كانوا ذكورًا، كذلك للتهرب مستقبلاً من أخذهم للجهادية، فقامت بفرض نظام يقوم فيه مسئول تسجيل المواليد فـــى الصحة بجولة يومية بين البيوت بالحنطور ومعه الزائرة الصحية، وعشان حرمة البيوت، تسبقه هى بطرق الأبواب، عشان لو فتحت حريم، وتسأل أهل كل بيت إن كان عندهم مولود.. لم يمر المندوب على بيت أبى منتصر فبيته "متطَرَّف" فـــى آخـــر الكفـــر بجـــوار

المصرف الذى يأنف كل أبناء الكفر من المرور بجواره إلا للضرورة، والغريب أن مندوب الصحة وكأنه يعلم الغيب عندما ذهب أبو منتصر إلى مكتب الصحة فى البندر ليسجل الولد بعد يأسه من مرور الحنطور عليه كباقى خلق الله، ظل يلح على أبى منتصر ويرغبه فى تسمية الواد بناصر أو عبد الناصر ويتغنى بالزعيم الذى علمنا الكرامة ورفع راسنا بين الدول العظمى، وأبو منتصر هو الذى أصر على الاسم الأول الذى طق فى نافوخه داخل المسجد، وكان منتصر، وأهو برضه فيه من ريحة الزعيم: "قادر ربنا ييجى اليوم اللي تتكحل عينيه وأنا شايفه قاعد مكانه، ما هو إنه ييجى في اللحظة المباركة دي يبقى ربك بيدبر التدابير.. سبحانه قادر على كل شيء".

" الله يرحمك يابا ".

" يا نهار إسود..إيه اللى حصل؟ مين ابن مرة وسخة اللى عمل كده؟

رددها منتصر وهو يقف أمام البرواز.. يتلمس مولوده بأطراف أصابعه بحذر وجزع.. يحدق بعينيه الكليلتين المدعومتين بعدستي نظارته سيئة الصنع والتى طق زجاج عدستها اليسرى بين

يديه بالأمس وهو ينظفها بعصبيته المعهودة، يمسح زجاج العدسات جيدًا غير مصدق ما يراه..الزجاج الخارجى تم تحطيمه ومولــوده تعرض لخدوش متعددة فى وجهه وجســده.. يجــرى كـــالمجنون متخبطًا برواد المحطة بحثاً عن المشرف.. هو الآن الذى يبحــث عنه، يخبره بما حدث وهو يلهث من أثر الجرى وكأن هناك كارثة قد وقعت.. الآخر يتطلع إليه مذهولًا كأنه أمام شخص مجنــون: " وإنت مال روح أهلك؟ إحنا مالنا؟ إصحاب الشركة أما يبعتوا حــد هيعرفوا.. أو ما يبعتوش هما حرين.. هو أصـــحاب الشــركة دى شايفينك بقرشين ولا إيه؟".. منتصر بعصبية مكتومة كاظمًا غيظه: " عيب يا با شمهندس الكلام ده". المشرف وهو يخرج مــن جيبــه ورقة نقدية فئة العشرين جنيهًا، وهو يمدها نحو منتصــر: " طــب شوف شغلك يا خويا وبعدين شوف شغل غيرك، يلا روح هات لى علبة مارلبورو أحمر بسرعة وما تتلكعش". منتصر وهو يتنـــاول الورقة النقدية صاغرًا، يزوم بفمه وهو يعطى المشرف ظهره يردد لنفسه: " ابن الجزمة حتى مش مراعى فرق السن بينى وبينـــه..يا مين يلايمنى على رقبته؟ فين فاسك يا با لندل زى ده، أحش بيــه رقبته؟" .

كلما هفت عليه سيرة المرحوم، استرجع معها لمته لهم حول طبلية المساء، الأب بعد أن أقعده المرض يتباهى بابنه الذكر الــذي ستر البيت بعد ضيق الأحوال ويعيد كل ليلة على مسامع الأســرة الملتفة حول الطبلية قليلة الزاد ووسط سعاله الذى أصبح متواصــلًا قصة ميلاد منتصر التي حملت معها بشائر النصر، ويكون ختــام قصته الذي اعتادوا أن يسبقوه في ترديده: "ما هو إنه ييجــى فــي اللحظة المباركة دي يبقى ربك بيدبر التدابير.. سبحانه.. قادر على كل شيء". " يا عم فوق بقى من أم التخاريف بتاعتك دي.. ربــك إيه، وتدابير إيه؟ إحنا جرابيع ولا نسوى نكلة.. وهنعيش جرابيــع ونموت جرابيع.. صدعت دماغ أمنا بحكاية ابنك الحيلة.. ديــن أم دي عيشة وعيلة مجنونة".

دائمًا مصباح دلوعة العيلة هو من اعتاد على إفساد اللمة مع نهوضه غاضبًا وخروجه للسرمحة مع شلة السوء.. الأب ينظر في اتجاه الصوت الغاضب.. تتراقص أمام عينيه صــورة شــبحية.. خيالات غير واضحة المعالم.. يتطلع بعينه الكليلــة إلــى بوســتر الزعيم المعلق فوق الجدار الطينى، البوستر تمزقت أطرافه، اختفت بسمة الزعيم ونظرة عينه الثاقبة، تآكلت ملامح الوجه الساحر، لكن أبا منتصر يعيد للوجه إشراقته بدعم من ذاكرته الفولاذية، التى وإن

تلاشى منها بعض تفصيلات الحاضر، إلا أنها لاتغيب عنها شاردة أو واردة من دقائق تفصيلات الماضى، فتعود إلى لحظـــة عمـــره التاريخية سخونتها، يردد بهذيان وكأنه يحدث نفسه: "إيه.. كانــت أيام عز وخير والله.. الواحد منا كان يمشى ورقبته في السما وكل العالم يعمل لنا ألف حساب، كانت مصر أم الدنيا بصحيح.. مـــش زى الأيام الغبرا اللي عايشين فيها دي.. روح جـــاك داهيـــة فـــى شكلك، أما صحيح واد تلفان وعمر ربنا ما هيبارك لك، طول مـــا أنى وأمك غضبانين عليك".

" الله يرحمك يا با".

رددها منتصر أكثر من مرة في سره وهو يتمتم بشفتيه وبدأ قراءة الفاتحة على روح المرحوم، فكلما هفت عليه السيرة شعر بأن روح والده تطلب الرحمة.. هل يأتي اليوم الذي يجلس فيـــه هـــو الآخر مع زوجته على طبلية المساء ليقص على ولده قصة ميلاده؟ "نفسي كده الواد ييجى بزفة وهيلمان زى اللي جيت بيهم.. ياه، فوق م الأوهام ياد يا منتصر.. إنت بقالك ييجى خمسة وعشرين ســـنة متجوز.. لو كان الواد جاى لكان جه من بدرى.. الوليـــة قربـــت تنشف، ولا باين الواد ولا بشاير أي زفة وهيلمان؟ وهـــى يعنـــى

الزفة والهيلمان كانوا عملوا لي إيه؟.. هيه.. نصيب.. طــب والله حتى لو جت بت أنى راضى ".. من مراقبته لنوعية من يقفون أمام هذه اللوحة تحديدًا كان يدرك أن فيها حــل مشــكلته الأزليــة وأن المكان اللى فيه الناس دى مكان معتبر بس يعرف العنوان إزاى من غير فضايح؟. " بيقولوا العلم دلوقتى بيعمل معجزات.. يا سلام يا با لوكنت مشيت معايا فى مشوار العلام لحد حتى نصه ولا ربعــه.. مش كان زمانى م البصة على البرواز ده عرفت العنوان والنظــام إيه، والموضوع هيتكلف كام؟".

"مضمون.. تلفون.. نجرب".

كانت هذه الكلمات المتناثرة هي محصلة ما خرجت به أذنـــه اليمنى المصوبة في اتجاه الزوجين الواقفين أمام اللوحة نفسها، على الرغم من أنه اصطنع القيام بعمله وكل آذانه مصغية لحديثهم، كانوا في منتهى الحذر والهمس.. مؤكد أنهما زوج وزوجــة، فنظــرات عيونهم تحمل شبع الأزواج الذي يعرفه عند تلاقى عينيْه مع عينى زوجته، عكس حالة الجوع التي تشع من عينيه عندما يكون الهدف الإناث المارات في المحطة ليل نهار، خاصة البنات صغيرات السن ببنطلوناتهن المحزَّقة وأوراكهن المخروطــة والمصــبوبة كأنهــا

مشدودة على قالب: "البنطلون دا بيعمل عمايل.. اللهم العنهم.. واللهِ صدق مولانا.. دى من علامات يوم القيامة.. الكاسيات العاريات.. دى لو ماشية ملط أرحم م البنطلون ده.. يخرب بيت اللى خلفوكِ.. البت لسه ما طلعتش م البيضة وشوف ماشية إزاى؟.. يوه.. يوه.. يوه.. حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم ارحمنا".. عندما ينام مع حفيظة لا تأتيه الهمة إلا باسترجاع بعض من حصيلة زاده اليومي من هذه المؤخرات.. مهووس هو بالمؤخرات خاصة عندما تكــون كاملــة الاستدارة يجرى فيها حز البنطلون بقسوة مباعدًا ما بين الفلقتــين المتبادلتين للرجرجة صعودًا وهبوطًا مــع الخطــوات المتمهلــة، ويستكمل هو بعينين كليلتين مدعومتين بعدســات نظارتــه ســيئة الصنع، النفاذ إلى ما وراء الحز والانغراس في عمق اللحم الطري، فلعينيه الكليلتين قدرة فائقة على جس مستوى الطراوة التي يتمتــع بها اللحم المار أمام عينيه ليل نهار، يســتبعد العضــلي المتيــبس ويستبقى "العرساوى " الذي تنغرس فيه الإصبع فلا تعوقه عظام.. خبرة اكتسبها منذ الصبا عندما كان يشحنهم المعلم حســونة علــى ظهر عربته النقل صبيان القرية وبناتها، عمالة رخيصة يتاجر بها في سوق البندر فى غير موسم لم الدودة.. هدد.. عتالة.. بنايــة.. خدمة بيوت.. سريحة.. يفرشهم على ناصــية الســوق بالبنــدر، ويتقاول مع الزبائن على أعمالهم وفى المساء يجمعهم ليعيدهم إلى

البلد بعد منح من أصابه الحظ وتم التقاول عليه، اللي فيه القسمة.. تكرارات الشحن خاصة مع الصباحات الشتوية الممطرة وانكشاف سقف العربة وجوانبها وقلة حيلة مايسترهم من ملابس، كانوا يبحثون عن الدفء في تلاصق أجسادهم المرتعشة، فتعلم التفريق بين ملامس الأجساد ذكورية وأنثوية.. الأملس الناعم منها والخشن المتيبس قليل اللحم، وبتكرارات الاحتكاك اليومي تعلم تمييز المذاق المتفرد لكل جسد.. حاول أكثر من مرة إتيانها من الخلف ولكنها كانت تزجره بعنف: " كله إلا ده، دي بتتهزلها سبع سماوات ".. يتراجع متحسرًا تهبط منه العزيمة، ويقوم بأداء الواجب اللي لا بيقدم ولا بيأخر: "سنين أهي عدت وكل زرعته على فشوش، الولية عمرها بطنها ماتنفخت ولو مرة غلطة ورجعت في كلامها".. يتطلع إلى الطفل الأشقر.. كل السنين دي والهبد والرزع يوم بعد التانى ومش قادر ياد يا منتصر تجيب حتة لحمة حمرا زى دي؟ لا تأخذه من سرحانه اليومي مع بروازه إلا واحدة من تلك المؤخرات الجديرة بالمتابعة فينسى الولد وسنينه، ويحلم باليوم الذي يأخذ فيه متعته المحروم منها.. حرام؟! يعنى بنعمل كل حاجة حلال ووقفت على دي؟.. لو كان باليد حيلة لنفذ الأمر القرآني الذي يردده عليهم إمام الزاوية كل جمعة، واتخذ منهن مثنى وثلاث ورباع.. سأل الشيخ عن موضوع "ملكت أيمانكم" ده، فعرف أن الأغنيا زمان

كانوا بيشتروا ستات كتير غير نسوانهم الأربع.. يا ألطاف الله.. يعنى لو واحد قدر يشترى ألف واحدة، يقدر لا مؤاخذة يعاشرهم كلهم زى نسوانه من غير جواز وعقد ومأذون؟ أجابه الشيخ بالإيجاب، فأخذ يردد كالمجذوب وهو يضرب كفًّا بكف: " يا سبحان الله.. يا سبحان الله .. ما البلد بتعانى م العنوسة والبنات مش لاقية رجالة، وربك ما يحطش أمر إلهي إلا إذا كان بحكمة لا نعلمها.. يا سبحان الله.. بس العين بصيرة والإيد قصيرة".. مؤكد كان سيجد فيهن من ترضى بإتيانها من الخلف، يردد منتصر لنفسه وهو شارد أمام بروازه: "دي حتى بتحْرِن وبتصمم تكون الليلة ضلمة كحل، ولا عاد ليها حس ولا خبر وكأنك بارك فوق مرتبة يا منتصر! مرتبة إيه بقى؟ قول حصيرة ولا عود بوص.. الحمد لله ع النعمة، كويس إني لقيت اللي ترضى بظروفي.. وإنت مالك ياد يا منتصر؟ راجل.. هو حد لاقى رجالة فى الزمن ده؟ ما هي برضه كانت في سوق النسوان ما تساويش".

يواصل منتصر لحس بسكوتة الآيس كريم بنهم، يجتاز ناصية الشارع باتجاه المتحف، فى منتصف الشارع يتذكر حفيظة، يلتفت إلى الخلف، لا يجد لها أثرًا، يزاحم فى الناس ويعود من حيث أتى، يراها واقفة وسط الزحام تتلفت يمينًا ويسارًا، وإن كان

لا يبدو عليها أى قلق كأنها واثقة من عودته للبحث عنها، فقد وجدها تلحس فى بسكوتتها وتستحلب الآيس كريم بلسانها قبل أن ينزل جوفها. يقبض على يدها كأنها طفلته، وهى بفرحة طفولية:

ــ الجيلاتى ده جميل أوى ياخويا، واللهِ كان عندك حق.
ــ حق إيه يا ولية؟ كنتِ هتوهى منى النهاردة.

ــ إيه أتوه دى يا راجل؟ هو أنى حمارة، كنت هوصل للمحطة وآخد الأتوبيس للطالبية، ومن هناك أخد المكروباص لحد البيت، مانى ياما نزلت الوكالة.
ــ ما كانش لواحدك يا حفيظة، مش كنتِ بتنزلى مع خيرية؟
ــ لأ ، أوقات كتير كنت بنزل لوحدى، وما أقولكش عشان ما تتخضش علِيَّه.
ــ نهار أبوكِ إسود، طب أما نروح يا حفيظة.

هى المرة الأولى التى يقبض على يدها عند خروجهما، فقد اعتاد فى مرات خروجهما النادرة والتى لا تتعدى جنينة الحيوانات فى الأعياد أن يسبقها فى المشى وهى تجر رجليها وتهرول خلفه محاولة اللحاق به. تغلبه العادة مع ثقل شدة يده إلى الخلف، فيفلت

يدها من يده ويسبقها بخطوة، واثقًا من أنها تعلمت الدرس وستتعلق بجلبابه، حفيظة تواصل شده من كم الجلباب بإلحاح طفولى، وتخبره بلجاجة الأطفال إنها عايزة علم صغير من دول.

— ٨ —

صحف القاهرة صباح الثلاثاء ١ فبراير ٢٠١١ :

الأهرام:

" حكومة جديدة بلا رجال أعمال".

الأخبار:

" المظاهرات مستمرة رغم حظر التجـــوال، والآلاف يفترشـــون ميدان التحرير".

الشروق:

" قبل ساعات من المظاهرة المليونية
بيان من القوات المسلحة: لن نستخدم العنف ضد أبناء مصر ".

المصرى اليوم:

" محمد حسنين هيكل فى حوار خاص للمصـــرى اليـــوم حـــول الأزمة:

الجيش لا يمكن أن يوجه رصاصة لصدور المواطنين، ووضع القوات المسلحة فى مواجهة الشعب انتحار".

" إن حسنى مبارك الذى يتحدث إليكم اليوم يعتز بما قضاه من سنين طويلة فى خدمة مصر وشعبها، إن هذا الوطن العزيز هو وطنى مثلما هو وطن كل مصرى ومصرية، فيه عشت وحاربت من أجله ودافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه وعلى أرضه أموت وسيحكم التاريخ علىَّ وعلى غيرى بما لنا أو علينا. إن هذا الوطن باقٍ والأشخاص زائلون، ومصر العريقة هى الخالدة أبدًا".

"من كلمة مبارك مساء الثلاثاء ١ فبراير ٢٠١١ "

مينا فى غرفته بعد تناول إفطاره اليومى المفضل؛ الفول المدمس البيتى والبيض بالبسطرمة مع العيش البلدى، يرتدى ملابسه، ويصيح عبر غرفته المواجهة للصالة ليصل صوته لأمه الجالسة فى موضعها المفضل على الفوتيه الكبير، وأمامها صحف صباح الثلاثاء الأول من فبراير:

ـ تراهنينى يا ماما إن حسنى بعد بيان الجيش ده خلاص باى باى، يعنى النهاردة هنسمع خطاب التنحى؟

ـ أنا معاك، خلاص كده اتحسمت. طول الأيام اللى فاتت كان الجيش لسه ماحسمش موقفه، لكن كده الصورة وضحت خلاص، بس يا حبيبى لسه المشكلة، وماذا بعد؟

مينا وقد خرج من غرفته بعد ارتداء ملابسه:

ـ المهم يا ماما دلوقتى حسنى يغور، أما ماذا بعد فتيجى بعدين، يمشى راس الفساد وبعد كده نرتب البيت براحتنا.

يجلس مينا قبالتها، يستطلع الصحف سريعًا.

ـ يا حبيبى المشكلة مش فى حسنى، المشكلة فى سيستم، جيش البيروقراطية الفاسد المتراكم على مدار سنين طويلة.. الدولة

العميقة يا مينا، دا بنيان أخطبوطى، حسنى وشلته مجرد قمة جبـــل الجليد.. العمق تحت.

ـــ يا ماما الشعب اللى قدر يصمد فـــى وش حســـنى وجبـــروت داخليته سهل عليه يقضى على أى فساد.

ـــ I hope so

ـــ محتاجة الجرايد دى يا ماما؟

ـــ لا ياحبيبى خلاص.

ـــ طب أستأذن حضرتك أخدها معايا

ثم وهو ينهض فى اتجاه المطبخ:

ـــ هتاخدى معايا القهوة فى مج ولا فنجان.

ـــ لا فنجان كفاية يا حبيبى.

ـــ على فكرة حضرتك، لو مرجعتش النهاردة ما تقلقـــيش، بعـــد التنحى هتبقى سهرة واحتفال للصبح.

عند الباب وهى تتوكأ على عكازها لوداع ابنها قبل نزولـــه إلى الميدان، تتأمله جيدًا وتحتضنه بقوة، ثم تعاود التطلع إلى وجهه، وهى تدس فى جيبه نقودًا بزيادة:

ــ خد بالك من نفسك يا مينا، الحية لما بينقطــع ديلهــا بتكــون أشرس ما يكون، ما تقفش فى أى مكان لواحــدك.. احــمِ نفســك بالناس، خليك وسط الناس.. وجودك وسط الناس هو أمانك الوحيد يا ابنى، وزى ما قلت لك قبل كده يا واد: إرجع لى صاغ سليم زى ما انا مخرجاك، فاهم؟ وإلا مش ها سامحك العمر كله.

شهد الميدان صباح ذلك اليوم توافد حشــودٍ كثيفــة تــدخل الميدان من جميع منافذه فى جماعات منظمة، بمــا يــوحى أنهــا تجمعات خرجت بنظام وترتيب مسبق من مناطق متنوعة وفئــات مهنية ونقابية متنوعة. المنصات تزداد سخونة وأصوات حماســية تنطلق عبر مكبرات الصوت المنتشرة فى جنبات الميدان، يصــل إلى منتصر صوت أحدهم من فوق المنصة الرئيسية القريبة منه: " لازم ننهى اللى بيحصل ده النهاردة، مبارك يمشى عشــان نرجــع بيوتنا". فجأة يدوى فى الميدان صوت قرع طبول عنيــف، التفــت منتصر والحشود المتراصة أمام المنصة تجاه عبد المنعم ريــاض حيث مصدر الصوت، على البعد تتقدم نحو الميدان مجموعة شباب بلحى مرسلة، يرتدون ترينجات دكناء موحدة اللون ويحملون على صدورهم طبولًا ضخمة يقرعونها بقوة وبإيقاع منــتظم، وخلفهــم يسير فى صفوف منتظمة حشد هائل من ذوى الجلاليب البيضــاء

القصيرة واللحى المرسلة غير المهذبة، يصاحب قرع الطبول صوت صيحات حماسية جماعية منظمة، بعد أن جذب قرع الطبول أنظار أهل الميدان نحو المشهد، يصيح صوت جهورى فردى يبدو آتيًا عبر ميكروفون: " تكبير"، فيردد الحشد الجماعى خلفه: " الله أكبر". يحمل مجموعة ممن يسيرون فى مقدمتهم أكفان بيضاء مفرودة على أذرعتهم ويردد زعيمهم الذى يتقدمهم من خلال مكبر صوت يقربه من فمه، وبصوت حماسى مبحوح من كثرة الصراخ: "إما النصر أو الشهادة"، وتردد الجموع خلفه بحماسية منقطعة النظير، وما بين مرتين أو ثلاث من ترديده لجملة: " إما النصر أو الشهادة"، يصيح فجأة: "تكبير"، فيرددون خلفه: "الله أكبر". ما بين عدة تكبيرات وصيحات يتصاعد قرع الطبول.

الجموع المشدودة للمشهد تفتح لهم طريقًا لمرورهم فى المنتصف، ويبدأ بعض الشباب فى التصفيق الحاد لهم فتتجاوب الجموع وتدوى فى الميدان تصفيقة حماسية طويلة، وتردد الحشود خلف مجموعة ذوى الجلاليب البيضاء صيحة: " الله أكبر"، يتابعهم منتصر بعينيه حتى يذوبوا وسط الحشود، وإن ظل الصوت يتردد صداه خافتًا يتباعد تدريجيًّا، فقد كان الحشد يدور فى جولة استعراضية تجوب أرجاء الميدان.

يأتى مينا متهللًا، يجلس بجوار منتصر، ثم وهو يفتح حقيبته:

ــ يلا يا عم منتصر نبدأ حصتنا بدرى بدرى، عشــان النهــاردة عندنا شغل كتير، خَرَّج كشكولك.

يقوم مينا باخراج العديد من الصحف من الحقيبة، ثم وهو يشــير إلى الصحف:

ــ النهاردة حصتنا من هنا.. جاهز؟

تنطلق من المنصة الرئيسية أغنية" صورة"، فيتحلق الشباب حــول المنصة ويبدءون فى ترديد الأغنية المتردد صداها عبر الميدان من خلال مكبرات الصوت، وهم يتراقصون ومينا يردد معهم بنشــوة وبهجة طفولية:

ــ واللى هيبعد م الميدان.. اللى هيبعد م الميدان.. عمره ما هيبــان فى الصورة.. عارف يا عم منتصر عندى احســاس إن النهــاردة هيكون اليوم الأخير، تقدر تقول كده بثقة إن حسنى هيطــل علينــا النهاردة بخلقته العِكرة للمرة الأخيرة عشان يعلن خطاب التنحى.

ــ كل يوم بنقول كده يا باشمهندس.

ــ لأ .. النهاردة الموضوع مختلف.. شايف الحشود عاملة إزاى؟ ومش هنا بس، كل ميادين مصر فيها مليونيات، وبعدين عندك بيان

القوات المسلحة إمبارح، هو بيان وكأنه ع الحياد، بس اسمع معايا الكلمتين دول:

مينا وهو يفتح إحدى الصحف التى بيده:

ـ أكدت القوات المسلحة فى بيان لها أمس أنها لن تستخدم العنف ضد أبناء مصر مع ضمان حقهم فى حرية التعبير السلمى عن رأيهم.

يطوى الجرنان، ثم لمنتصر:

ـ يعنى لو مبارك قال لهم: اضربوا، هيقولوا له: ما كانش ينعز.. كان زمان وجبر، وفى نفس الوقت رسالتهم بتقول لنا: اعملوا ما بدا لكم مش هنقرب منكم.

ـ لأ بقى يا باشمهندس.. واحدة واحدة عليَّه، وفهمنى كده كلمة كلمة.

ـ مش بس هفهمك ، دا احنا هنستهجى حرف حرف وهنكتب.

ثم وهو يفرد إحدى الصحف التى تحمل فى صفحتها الأولى صورة لهيكل يعلوها مانشيت من أربعة أسطر، ويعرضها على منتصر وهو يشير إلى المانشيت:

وكمان هنكتب الأربع سطور دول من حوار هيكل.

ـ يااه هو سى هيكل لسه عايش؟

مينا بدهشة:

ــ تعرف هيكل؟

ــ يا سلام عز المعرفة، دا أنى وأنا صغير خدت من أبويا علقة موت بسبب سى هيكل ده.

ــ احكيلى.

ــ كان عندى يا دوب عشر سنين وأبويا فى وسط القعدة انجعص وسط صحابه ع المصطبة وطلّع من تحت الحصيرة جرنان الأهرام، عشان يتباهى بيَّه قدام أصحابه، وأقرالهم مقال سى هيكل، وكانت فضيحة ما عرفتش حتى أقرا العنوان، وكلت علقة ما ياكلهاش حرامى فى مولد.

مينا وسط ضحكاته:

ــ خلاص يا عم هخليك النهاردة بنفسك تقرا حوار هيكل.

فرحة مينا الطاغية وكلماته الواثقة تمنحان منتصر ثقة لا تقبل الشك فى أن كل الأحلام ستتحقق الليلة، فيقرر العودة للغرفة للاطمئنان على حفيظة وليبشرها بما سمعه من مينا، سيقول لها إنه تعرَّف فى الميدان على ناس كبرات واصلين قوى رسوه ع الدور وفهموه إيه اللى هيحصل قبل ما يحصل، عشان يعرَّفها إنه مش هفية ويكبر فى عينيها.

كل المواصلات مقطوعة، فاضطر إلى قطع المسافة سيرًا على الأقدام من الميدان لحد العزبة، وكان مارًّا بجوار قهوة شكرى اللى على الناصية وسمع الريس وهو بيقول: " فيها عشت ومش عارف إيه، وعلى أرضها أموت". قبل ما يخطى جوا الحوش سمع صريخ، رجع تانى للشارع لقى شباب الحارة البلطجية خارجين بسنج وسيوف وشوم وعمالين يقولوا: " العيال الخولات اللى فى التحرير دى لازم تتربى". التلفزيون طول الليل يعيد ويزيد فى خطاب الرئيس وهو أول ما يسمع: " على أرضها أموت" يتجنن، ويقطع الغرفة جيئة وذهابًا، وما بين الخطاب وإعادته، يرى التلفزيون يعرض لقطات للكورنيش هادئًا بما يوحى إن كله تمام وماعادش حد فى الميدان، حفيظة تلاحقه بكوب الشاى تلو الكوب:

ــ لو أعرف بس يا خويا إيه اللى معفرتك كده؟

يصرخ فيها وهو يقطع الغرفة جيئة وذهابًا وعينه على شاشة التلفزيون:

ــ يا ليلة سودا، هى الناس راحت فين يا ولية؟ الراجل الظاهر بلفهم بالكلمتين بتوعه دول.. أنى سايب الميدان وكله تمام.. الظاهر كله رايح على فاشوش يا حفيظة.

يقترب من باب الغرفة ويهم بفتحه:

ــ أنى لازم أخرج دلوقتى.

حفيظة تجرى للباب وتسحبه من يده:

ــ استهدى بالله يا خويا.. الدنيا دلوقتى خطر.. اصبر لحد ما يشقشق النهار.

لم يهدأ له بال حتى شقشق نور الفجر، فأخذ الشنطة التى جهزتها له حفيظة ونزل على الميدان. وجد الميدان كما تركه بالأمس، خفت الكثافة قليلًا لتأثر البعض بالخطاب العاطفى، وسمع بعض المتطوعين بالنصيحة يدورون بين المعتصمين يستحثونهم على مغادرة الميدان، ولنترك الرجل يقضى باقى مدته، وقد وعد بأنه لن يترشح ثانية ويحذرون من الفوضى، لكن الميدان مازال على آخره. مع الاطمئنان على الميدان غلبه التعب من السهر طوال الليل والقلق، فتكلفت فى البطانية وغرق فى النوم، ليفيق على كابوس عند الظهيرة. أيقظه الطرق العنيف المتواصل بالحجارة على حواجز الميدان الحديدية، والذى يكون نذير خطر، ففتح عينيه على دخلة راكبى الخيول والجمال.

من موقعه أمام مدخل محطة المترو المواجه للمتحف، شاهد منتصر دخلة راكبى الخيول والجمال بما يحملونه من سنج وكرابيج

وجنازير يضربون بها الشباب، وشاهد مجموعة من الشباب البلطجية يتعدون المائة يدخلون الميدان معًا من اتجاه عبد المنعم رياض فى حماية راكبى الخيول والجمال، عرفهم من هيئتهم التى يراها على أمثالهم فى الحارة، يبدءون خناقاتهم بخلع ملابس نصفهم العلوى، ودهان هذا النصف العلوى بالزيت حتى لا يستطيع أحد الإمساك بهم، وفى يد كل منهم إما سنجة وإما سيف وإما جنزير.. لم يجرؤ منتصر على التحرك من مكانه، انكمش مذعورًا وبدأ ينزل مع سلالم المدخل إلى أسفل ليتوارى عن العيون.

يتواصل الطرق العنيف بالحجارة على حواجز الميدان الحديدية، ووجد طوفانًا من الشباب يتدفقون فى اتجاههم دون خوف، لا ينسى وجه هذا الشاب أعلى حصانه الذى بدأ يدور بحصانه فى دورات لانهائية، قريبًا من مخبئه أسفل سلم محطة المترو، الشاب يضرب بطن الحصان بساقيه بعنف وينخسه بكعب حذائه ويغرس طرف الكرباج فى ظهر الحصان تارة وينهال عليه بالسوط تارة أخرى، ووجهه كله ينطق بحالة صراخ هستيرى يدارى فزعًا أكثر منه شجاعة؛ ليستحث الحصان على التقدم فى خط مستقيم، والحصان فزعًا من كل هذه الحشود يصهل بشكل هستيرى يكاد يوقع الشاب أرضًا، لكن الشاب النحيل ابن جنية،

يصعد ويهبط ويزداد إحكام قبضته وكأن هنـــاك لاصـــقًا مطاطيًـــا يلصقه بالحصان، بعد يأسه من ترويض حصانه لطاعته، بدأ راكب الحصان يطيح فى الحشود بشكل هستيرى بكرباجـــه الســـودانى؛ ليوسع سكة لحصانه، وفجأة انشقت الأرض عن هذا الشاب الأسمر ذى الجسد الرياضى والتى شيرت نصف الكم وكأننـــا فـــى عـــز الصيف، الشاب يطير فى الهواء بقفـــزة واحـــدة ليجـــذب راكـــب الحصان من رقبته ويطرحه أرضًا ويختفى راكب الحصـــان فـــى لحظة تحت أقدام الحشود. مع فرار البلطجية من اتجاه عبد المـــنعم رياض، بدأ منتصر يكتسب الثقة ويعود إلى أعلى سلالم المـــدخل، شاهد حصانًا هائجًا يجرى متخبطًا فى الحشود ويتصدى له رجل تخطى الستين وقف فى مواجهته فرفسه الحصان فى صدره فوقـــع الرجل على الأرض، وقبل أن تدهسه الأقدام جرى عليه منتصـــر وساعده بعض الشباب على حمله، وحمله منتصـــر علـــى ظهـــره وتوجه به نحو المستشفى الميدانى فى عمر مكرم.

عند عودة منتصر إلى مستقره، وجد أحـــد الشـــباب يمســـك "بأزمة" ويحاول بها تكسير الرصيف؛ لتوفير قطع حجـــارة لصـــد هجوم البلطجية، الذين يلعبون الآن مع الثوار لعبة كر وفر، يفرون فى اتجاه عبد المنعم رياض ويعودن أكثر كثافة محملين بقطع كسر

الرخام وزجاجات المولوتوف؛ فيطاردهم الشباب فيعودون ثانية إلى عبد المنعم رياض وكأنهم يتلقون من هناك المدد فيعاودون الكـــرَّة. يتناول منتصر الأزمة من الشاب المتعثر فى اســـتخدامها لانعـــدام خبرته فى التعامل معها، وبخبرة سنوات العمر يضـــرب منتصـــر بالأزمة ضربات يد مدربة فيتحول الرصيف فى لحظات إلى قطـــع حجرية متناثرة، يهجم عليها الفتيات قبل الشباب ويهرولون بها فى اتجاه عبد المنعم رياض وهو يواصل التكسير بهمـــة شـــاب فـــى العشرين وحيويته.

قبل غروب شمس ذلك اليوم ومع استمرار لعبة الكر والفر، عاود منتصر الخوف من قطعة حجر تصيبه فـــى مقتـــل، فنـــزل درجات السلم عند الباب الحديدى المحطم، وجد مينا يـــأتى نحـــوه مهرولًا يتطوح فى مشيته، للمرة الأولى لا يجد منتصـــر الحقيبـــة معلقة فى كتف مينا، يتطلع إليه مينا مستنجدًا يكـــاد ينكفـــئ علـــى السلالم، يجرى عليه منتصر ويسنده ليجلسه على درجات السلم قبل تدحرجه إلى أسفل، فينطرح رأس مينا على كتف منتصر.. يفـــتش فى جسده، ليس هناك أى دلالات إصابة ظـــاهرة.. يهـــزه بعنـــف كالمجنون.. لا يرى من مينا استجابة.. ينزل لسلمتين أسفل وهـــو ممسك بذراع مينا حتى لا يفلت منه. يجلس أمامه، عاقدًا ذراعـــى

مينا حول كتفيه وينهض رافعًا مينا على ظهره: " يا قــوى.. شــد حيلك معايا يا باشمهندس، وأنى أوعدك زى الرهوان فــى ثانيــة هوصلك للمستشفى.. باينه مسورق، أى والله أكيد، ما هو زى الفل أهو.. دا الواد سفيف وخف الريشة.. خليك معانا يارب بحق جــاه حبيبك المصطفى.. الطف يارب.. الطف يارب".. يصيح بصــراخ هستيرى وهو يخترق الزحام حاملًا مينا على ظهره: "سكة وطريق يا خلق هوه.. مصاب.. مصاب يا عالم وسعوا.. سكة وطريــق".. يصرخ.. يبكى.. يتخبط فــى النــاس، يجــرى نحــو المستشــفى الميدانى.. حفظ الطريق منذ ليلة اليوم الأول، وتكرارات ذهابه فى الأيام التالية.. فهم من نظرة الطبيبة التى خبرها من قبل.. التــف بعض متطوعى المستشفى الميدانى حول مينا لسحبه لعمق المقــر، ومنتصر وهو يصرخ فيهم: "بالراحة عليه يــا جماعــة بالراحــة، اعدلوا رقبته، هتتلوح منكم". يدخل خلفهم، يضــعون مينــا وســط عشرات متراصين على أرضية المقر، المشهد نفسه الذى رآه عندما جاء بأحمد فى اليوم الأول. وشوش لسه خضر لعيال لا راحت ولا جت.. يدور حول الجثامين ذاهلًا يطوح يديه فى الهواء، ثم يشــوح بهما مع فتح فمه كمن سيقول شيئًا، لا يخرج من فمه إلا الهــواء، يعود إلى الدكتورة المشغولة بتخييط جروح لــبعض المصــابين: " يعنى مفيش أمل يا دكتورة؟ .. اعملى حاجة، وأنى شايله واللهِ كنت

حاسس بنَفَسُه فى ضهرى يا دكتورة، باينه مسورق والنبى بصـــى عليه تانى يا دكتورة، أبوس إيدك أنى متأكد إنه لسه مـــا قطعــش النفس"، يجذبها من يدها ويجرى بها كالمجنون نحو صف الجثامين، ينبطح أرضًا ويميل برأسه نحو الجسد الممدد واضعًا أذنـــه يســـار الصدر تجاه القلب، ينصت بأذنه جيدًا، ثم يرفع رأسه نحو الدكتورة وهو على رقدته: " والله حاسس بنَفَسُه يا دكتورة، والنبـــى تيجـــى تتأكدى بنفسك". الدكتورة بعيون دامعة: " البقاء لله يا حاج". يخرج منتصر ذاهلًا، يضرب كفًّا بكف، وهو يهذى كالمجنون: " حسبنا الله ونعم الوكل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. ربنا ينتقم منك يا مبارك".. يعود منتصر إلى موقعه متخبطًا فى البشر، حالة فوضـــى عارمـــة وصريخ وهرولة غير منتظمة فى اتجاهـــات متباينـــة، أشـــخاص كثيرون على الأرض بجروح متباينة وحالات إسعاف أوليـــة فـــى المكان للحالات البسيطة، وكم هائل من الموتوســيكلات ظهــرت فجأة، يرفع عليها شباب الميدان الحالات المصابة خلــف الســـائق وشخص يجلس خلفه ليسنده، والموتوسيكلات تجرى بسرعة البرق وسط الحشود التى توسع لهم سكة وتنطلق نحو المستشفيات، شنطته السوداء فى موضعها. يجلس منتصر أعلى السلالم، انفصل تمامًـــا عن كل ما يدور حوله، لا يشعر بهذه الفوضى العارمـــة الـــدائرة رحاها من حوله، تتطاير قطع الرخام والحديد بجوار رأسه، تنفجر

زجاجة مولوتوف فتشعل النار على بعد خطـــوات منـــه، وهـــو لا يبالى، يستخرج كراس مينا ويبدأ فى تقليب صـــفحاته: " عـــيش .. حرية.. عدالة إجتماعية.. عيش حرية .. كرامة إنسانية.. يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة بينـــا وبينـــك.. .. مـــش حنخـــاف مـــش حنطاطى.. إحنا كرهنا الصوت الواطى". يردد منتصر الكلمات مع نفسه وهو يتلمس الحروف وكأنه يستحضر مينا، قبل أن يعيد وضع الكراس فى الشنطة السوداء، وجد جسدًا ضخمًا ينتصب فى وجهه ويحجب عنه رؤية الميدان، ويدًا تقبض على يده بعنـــف وتســـحب الكراس من يده، تلقيه فى الشنطة السوداء، ويدًا أخـــرى تســـحب الشنطة، وأكثر من يد تحيط به، ينهضونه، وفى لحظة وجد نفســـه محمولًا من عدة أشخاص ملثمين، ويلقون به داخل سيارة إســـعاف كانت تقف بجوار المدخل، وقبل أن تنطلـــق الســـيارة، قـــام أحـــد المحيطين به داخل السيارة بنزع نظارته المشروخة بعنف من على وجهه، وألقى بها فى الكيس البلاستيك الذى يمسكه بيده، وتغميـــة عينيه بعصابة سوداء، وانطلقت السيارة بصوت عوائها المخيـــف تشق شوارع لا يراها منتصر.

صحف القاهرة فى يونية ١٩٦٧ :

ـــ الأخبار .. ٥ يونية ١٩٦٧ :

ـــ العراق ينضم إلى اتفاق الدفاع المشترك مع الأردن.

ـــ عبد الناصر يعلن للعالم والأمة العربية بعد توقيع الاتفاق:

إننا ننتظر المعركة على أحر من الجمر؛

ليعرف العالم أن الجندى العربى هو المقاتل الشجاع الباسل.

ـــ المساء.. ٥ يونية:

ـــ اسقاط ٤٣ طائرة للعدو.

ـــ بدأت المعركة.

ـــ إسرائيل تبدأ العدوان فى الساعة التاسعة من صباح اليوم.

ـــ الأخبار.. ٦ يونية:

ـــ أسقطنا ٨٦ طائرة للعدو.

ـــ قواتنا تتوغل داخل إسرائيل.

ــ الأهرام .. ٦ يونية:

معارك ضارية على كل الجبهات مع العدو.

ــ بدأ العدو الإسرائيلى هجومه على الجبهة المصرية جــوًا وبــرًا ابتداء من الساعة ال٩ صباح أمس.

ــ إسقاط أكثر من ١١٥ طائرة للعدو خلال هجماته الأولى.

ــ الجمهورية.. ١١ يونية ١٩٦٧ :

ــ انتصر الشعب وعاد عبد الناصر.

ــ عبد الناصر فى رسالة إلى مجلس الأمة: إنى لأعطى هذا الوطن راضيًا وفخورًا حتى الحياة إلى آخر نفس فيها.

ــ قررت أن أبقى فى مكانى حتى تنتهى الفترة التى نزيل فيها كل آثار العدوان ثم يرجع الأمر إلى الشعب لاستفتاء عام.

ــ الشعب وحده هو القائد وهو المعلم وهو الخالد إلى الأبد.

كيوم خروجهما وسط حشد أبناء القرية لرؤية خطاب الزعيم فى اليوم الأول لكشك التلفزيون، خرج أبو منتصر علـــى صـــوت عويل وصراخ يملأ القرية، ونسوة يفترشن الأرض ويهلن التراب على رءوسهن، حاول الهرولة للحاق بحموع القرية المتجهة نحـــو كشك التلفزيون لاستطلاع الخبر، خانته قدماه وضيق نفسه وسعاله الذى ازدادت وتيرته فى الآونة الأخيرة، فأنهضه ولده الصغير بيده الفتية التى تسبق سنه التى لم تتجاوز بعد الحادية عشرة، وتتبئ عن ملامح بلوغ مبكر للطفل الذى أصبح صبيًّا، ولوهن الأب وصـــلوا إلى الساحة متأخرًا مع بدء انصراف الناس بحالات عويل وصراخ وصويت، كان الزعيم يقول:

"عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى، وأن أعود إلى صـــفوف الجماهير أؤدى واجبى معها كأى مواطن آخر".

تطلع الصبى إلى وجه أبيه يستطلع الأمر، فشاهد أباه للمـــرة الأولى فى حياته وهو يبكى بنهنهة مكتومة وكأنه تحول فجأة إلـــى طفل صغير، ومع بداية انصراف أهل القرية ذاهلين؛ فـــيهم مـــن يلطم، ومن يحوقل، ومن ينهنه كالأطفال، ومن بركت على الأرض وتهيل من ترابها على رأسها، ومن تدب بالصوت كمن مات لهـــا

عيل، وأبو منتصر يقترب وحده من الشاشة، ساحبًا يد ابنه قابضًـــا عليها كأنها صمام أمانه، ويردد لنفسه وكأنه يخاطــب المغــادرين للساحة، ولكن الصوت لايصل لأبعد من فمه: " يا خلق هوه استنوا، الريس لسه عنده كلام مهم هيقوله".. يحدق فى صورة الرئيس وهو يواصل خطابه، الصورة على الرغم من اقترابه تبدو ضبابية ويرى الملامح غير واضحة والرئيس يقول:

"وتطبيقًا لنص المادة ١١٠ من الدستور المؤقت الصادر فى شهر مارس ١٩٦٤، فقد كلفت زميلى وصديقى وأخى زكريـــا محيـــي الدين بتولى منصب رئيس الجمهورية".

عندها ذهل أبو منتصر حتى عن ولده وتـــرك يـــده، وبـــدأ يضرب كفًّا بكف وهو يهذى بذهول، موجهًا حديثه إلـــى الشاشـــة وكأنه أمام الرئيس يحدثه بشكل شخصى: " لا حول الله يارب.. ليه كده بس يا أبو خالد؟ ليه تشمت فينا الأعادى؟.. ليه تحوسنا الحوسة دى يا ريس؟.. مش كنت تاخد بالك قبل ما تخطيها.. والعمل إيـــه دلوقتى بقى؟.. عايز تسيبنا فى اللوصة دى؟ دا كلام برضه؟".

الوالد كان على قيد الحياة عندما حدث يوم النصر المجيد، الذي أعاد الشيخ نفسه للمسجد المتهالك ذاته، التأكيد على أن الملائكة كانت تحارب إلى جوار كل من أطلق الصيحة الشهيرة: " الله أكبر"، " نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أما وقد عدنا إلى الإيمان فقد عادت الملائكة لتقف صفًّا تدفع الأذى عن كل من صاح صيحة: "الله أكبر، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم".. "الله أكبر.. الله أكبر".. الصيحة ارتجت لها جدران المسجد المتآكلة وشارك في صنعها الأب بصوت واهن متقطع خارج من بين سعاله الذي أصبح متواصلًا، لكن قلبه كان يتراقص فرحًا للصيحة المجلجلة التي انطلقت من صدر ولده الفتى الذي يجلس إلى جواره.. مع تتابع بيانات النصر والخوف من طول المعركة، أشار ولاد الحلال على الأب الذي بدأ رقدته في السرير ولا يخرج متوكئًا على ولده إلا للصلاة، بأن يقطع منتصر إصبع سبابته اليمنى ليأخذ المعافاة.

الأب يواصل جلسته الأبدية على المصطبة، على الرغم من تكالب العلل عليه وتفاقم السعال المتواصل وبصقات المخاط التى أصبحت الآن مختلطة بشعيرات الدم، لا يتوقف عن سحب أنفاس الدخان من بوصة جوزته مع رشفات الشاى الأسود من البراد المزنجر المتفحم الذى لا ينزل من على الراكية، ومع دورات

الجوزة ودورات أكواب الشاى، يتناقش رفقاء الجوزة فى مصير منتصر:

ــ مين عارف الحرب هتطول لحد إمتي؟

ــ الواد بكرة يصيبه الدور ويروح في شربة مية.

ــ دى حرب يا أبو منتصر، الداخل مفقود والخارج مولود.

ــ مين هيقوم بِهَمِّ البيت وكوم اللحم اللي فيه؟ خسارة صباع أحسن من خسارة الجسم كله.

لم تستمر الحرب كما توقع المحللون وخسر منتصر سبابته على قلة فايدة، فعندما أصابه الدور خرج لعلة قلة البصر وليس بسبب السبابة المقطوعة.

منتصر الذي انتظم وقتها في دروس محو الأمية لتعويض ما فاته، لم يفهم ثورة الأب، عندما عاد منتصر ليلًا بعد درس محو الأمية الذي كان ينظمه الشاب الشيوعي الكافر أحمد لتعليم أبناء قريته الجهلاء لدفع دين عليه لبلاده التي علمته مجانًا، هكذا كان يخبر تلامذته الكبار بتفاخر وتأفف، لكن الشهادة لله لم يكن يدخر جهدًا فى محاولة تعليمهم أوليات القراءة والكتابة، والأهم أنه كان يحاول تعليمهم أوليات الفكر.

كانت ليلة مشئومة تلك التى عاد فيها منتصر منتشيًا بكلمات أحمد يرددها على مسامع الأب كالبغبغان: " إذا كانت هناك ملائكة في ذلك اليوم، فلماذا تخلت عن أتباعها فـــي منتصـــف الطريـــق وساهمت في تحويل نصف النصر إلى نصف هزيمة ؟!..إحنا اللى كنا بنحارب بأيدينا مش الملايكة، اجتهدنا فى الأول نجحنا، وخبنـــا فى الآخر فشلنا، الملايكة ما بتحاربش نيابة عن بشر".

اللسان ليس لسان ولده، بل لسان من يستغل محـــو أميتـــه لحشو رأسه بالضلال المبين، فقرر الأب بلا رجعة وبطلاق تلاتة، وسط سعاله المتواصل وانتفاض جسده برعشة متواصلة صـــنعها السعال المتواصل وغضبه مما قد يئول إليه مصير ابنه لو دخل فى دائرة الكفر باتباعه أفكار الفاسد أحمد، ألا يتعلم ابنه على يد هـــذا الزنديق الذي سيودى به إلى الهلاك، فيغور التعليم إذا كان نتاجـــه إنه هيخسر حتى آخرته المتبقية له بعد الابتلاء بضيق العيش فـــي الدنيا.

"الله يرحمك يابا.. يعنى كان هيجرى إيه لو سبتني أتعلم حتى ولو على إيد كافر؟ ما الشيخ بيقول إن الرسول عليه أفضـــل الصـــلاة والسلام كان بيسيب أي أسير كافر متعلم؛ بشرط يعلم شوية مسلمين

جهلة.. مش كان زماني واحد م البهوات التنابلة اللـــي قاعـــدين ع الكراسي لا شغلة ولا مشغلة، والله لو جه الواد لقطع معاه طريـــق العلام لآخر شوط حتى لو بعت اللي ورايا واللي قدامى.. بس ييجى الواد".

إحساس غامض يسيطر عليه ويؤكد لـــه أن هـــذا البـــرواز سيكون فاتحة خير وأن ما يسعى إليه سيتحقق من خلاله، بس يفك خطه ويعرف الطريق.. قلبه عمره ما كدب عليه.. هو الإلهام قُل.. القرب من الله.. أكيد، فهو يعلم جيدًا أن الله إلى جانبـــه فـــي كـــل خطواته، وهو بشهادة الجميع "راجل فيه شيء لله" لا يقطع الفرض، ولا يتوقف عن ترديد التسبيحات ليل نهار؛ هذه التســـبيحات التـــي أخبرهم شيخ المسجد في قريته ثم شيخ الزاوية الملاصقة للحـــوش اللى ساكن فيه فى الطالبية كذلك شيخ مسجد نصر الدين، أن الألف منها تُدخِل الجنة، وقد رددها للآن مئات الألوف من المرات، يعنى داخل الجنة داخل وبالكام ألف تسبيحة اللي عملهم هيكون عنده ولا ميت قصر؛ ليعوض فيها حرمان سنين الدنيا ما بين آلاف الحـــور العين اللى هيعوضوه ملك اليمين اللى ماحققوش فى الدنيا، والطعام الذي سيأتيه حتى السرير وحالة البرطعة اللي هيعيشها مـــن غيـــر طفحة الدم عشان اللقمة.. كان بارًّا بوالديه على قد لحافـــه فـــالعين

بصيرة والإيد دايمًا قصيرة، وحــافظ مــؤخرًا علــى اصــطحاب المصحف في جيبه ينظر فيه مستغرقاً كلما خفّت الرِجــل وخفّــت مشاغلات المؤخرات الأنثوية.. المشرف الشرس اللــي متقصــده بالخصومات في الرايحة والجاية، يخشى معاقبته أو تأنيبه عنــدما يراه فاتحًا المصحف مستغرقاً في صفحاته.. يكتفي مــن الــورق بجمال شكل الحروف وتنسيقها، فباستثناء الفاتحة التي يحفظها نطقًا ورسمًا والتي يقضى أمامها الساعات متمنيًا أن تكون نصيب بــاقي الآيات في قلبه وعلى لسانه كالفاتحة صورة ومعنى، فهو لا يفهــم حرفًا.. يحدق ليطبع صورة الصفحات، فكل هذه الصفحات محفورة في قلبه ويعطيه النظر إليها راحة تفوق الوصف، الراحة نفسها التي يشعر بها عند التطلع إلى حروف البرواز البراق الــذى تشــاغله حروفه المجهولة لديه، والتى يثق أنها ستكون طريق سعده وهناه.. ما يثق فيه أن حل مشكلته في هذا البرواز، بهــذا المولــود الــذي يتصدر منتصفه.. طبعًا فضيحة لو وقَّفْ أي حد كــده وقــال لــه: إقرالي اللي في البرواز ده إيه؟ دا المتعلمين بيقفوا قــدامها وهمــا بيتلفتوا شمال ويمين لحد يشوفهم ويفضحهم إنهم لا مؤاخذة مــش رجالة، يبقى هو هيقف وببجاحة كده يوقَّفْ حد ويقول له: اقرالــى اللى فى البرواز ده إيه. أقلها اللى هيقف ده هيبص له على إنه مش راجل.

هى المرة الأولى التى يقف فيها أمام مكتبة لبيع الأدوات المدرسية.. يدخل مترددًا كمن يهم بالسؤال عن ممنوعات:

ــ عايز قلم ؟

ــ نوعه إيه؟

هو بجدية وارتباك:

ــ قلم بيكتب.

ــ فهمت.. حاجة عملية ورخيصة.. اتفضل القلم ده بخمسين قرش، وعندنا كمان كراريس وبرايات ومساطر بسعر حلو أوى، وهاعمل لك ديسكاونت عشان الأولاد ربنا يخلى.

ــ هو قلم بس.

اشترى قلمًا بخمسين قرشًا وفرد علبة سجائر فارغة مما يتركها المشرف على مكتبه، وبدأ نقل حروف اللوحة كلمة كلمة، كل كلمة على حدة، ويسأل كل يوم أحد المارة عن معنى كلمة منفردة.

" الله يرحمك يابا.. روحه طلبت الرحمة".

شيخ الزاوية أخبرهم أن ابن آدم بعد موته ينقطع عمله إلا من ثلاث، لا يذكر منها إلا حكاية ولد صالح يدعو له.. أعجبته.. يعنى أبوه مات وهو عمال يوصل له حسنات ترفع مكانته فـــي الجنـــة.. الكابوس الذي يؤرقه أنه لن يكون هناك بعد عمر طويل من يقـــول عنه: " الله يرحمك يا با"، يعنى هتتقطع عنه الحسنة بعـــد موتــــه، خاصة أن ظروفه تمنعه من جمع حسنات في الدنيا، حتـــى شـــوية الصلاة أكيد هيطيروا ع البصبصة ع البنات اللـــى بتشـــغى بـــيهم المحطة ليل نهار.. بس هما السبب ما يغطوا نفسهم.. أدمن الوقوف أمام البرواز، تطول وقفته للدرجة التي تدب فيها الروح في المولود المتربع أعلى اللوحة.. يتلقفه في صدره، يجرى به إلى زوجته يلقيه في حجرها.. يجلس مع ولده على الطبلية يحكى لـــه عـــن جـــده وأحلامه بالخير اللى هيعم، والبشاير اللى كانت هالة.. يحكـــى لـــه عن جدته التى لم تخلع السواد طوال عمرها، وماتت دون أن يرى الضحكة على وجهها إلا فى النوادر.. يحكى له عن طولة لسان أمه وأنها ما كانتش عايزاه ييجى.. يحكى له عن عمه مصـــباح اللـــى ساب البلد وهج.. بعدما كتب المشرف فيه أكثر من تقرير متهمًـــا إياه بالتقاعس والتقصير، اعتاد علـــى الوقـــوف بأدواتـــه كاملـــة، الجاروف بذراعه الخشبية الطويلة في يده اليسرى والمكنسة بيـــده

اليمنى، وحتى لا يشغل نفسه بمراقبة جولات المشرف، اعتاد على تحريك المكنسة والجاروف بشكل متتابع دون عمل يُذكر.

اتصل من كشك بعيد عن سكنه حتى لا يفضحه الجيران بكشف ستره والتلقيح عليه بموشحات النقورة إياها. ستتكلف العملية عشرة آلاف جنيه ليحصل على من يقول عنه بعد عمر طويل: الله يرحمك يا با، وبرغم الفلوس دى كليتها سن مراته هيخلى نسبة النجاح مش أد كده:" طب عليَّه النعمة دا العشر تلاف يكملوا لى التلات جوازات الباقيين".. جاره في الغرفة الملاصقة بالحوش "عبد الحفيظ عبد المتعال " قام بإجراء العملية نفسها لزوجته في مستشفى الولادة الأميرى الكبير اللى فى شارع رمسيس بعد دور استمر سنوات وواسطة تقيلة لرب أحد البيوت التي تعمل فيها زوجته بالخدمة.. برغم أن فضيحته كانت بجلاجل على لسان كل الجيران حيث بدأت الإشاعات تسرى: " بإنه مالوش في النسوان وإنه مش راجل؛ لأنه لو كان راجل كان ملا بطن مراته من غير عملية "، إلى قائل: "إزاى يقبل على شرفه يتحط لمراته مية راجل تانى لأن دا اللي بيحصل في العمليات دي"، إلى ثالث صرَّح في جلسة القهوة على الملأ أنه استفتى شيخ الزاوية الذي أكد لهم بإجماع الفقهاء "أن هذا الأمر هو زنى مستتر، والولد اللى يتولد

بالشكل ده يعتبر ابن سفاح".. خسر أيضًا الجلد والسقط من طلبات المستشفى التي لا تنتهي وفى النهاية لم يأتِ العيل، وكمان اللي زاد وغطى: " إن خيرية مراته خرجت م العملية بداء الكبد والعياذ بالله وداخ بيها كل يوم ع القصر المجاني ولا شغلة ولا مشــغلة وولاد الحلال استخسروا فيه الحسنة اللى كانوا بيدوهاله، دا غير التلقــيح بمصطلحات قاموس طويل عريض من الأمثال الشعبية: "نفسه في ولى العهد عشان يفوت له الأبعديات.. عريان ويقول باب الخمارة فين؟"، وغيره وغيره وهات يا ضحك وتنكيت.. هو نفســه يشــعر بالخجل عند اجتيازه الطريق إلى الحوش الذي يقيم فيــه مجتــازًا عشرات البطون المنتفخة لنسوان أحواش المنطقة المتنــاثرة علــى الطريق المؤدى إلى مدخل الحوش الذى يقيم فيه وعشرات الأطفال المبعثرين حولهم.. يشعر في نظرات نساء ورجال الحتة باتهام لــه هو الآخر إنه مالوش في النسوان.

ما يؤرق منتصر هو حمل الأمانة، فعليه وحده تقع مسئولية إحياء ذكر والده، فالبنات أنجبن بنات وبنين، ولكن ذكر سلسال أبو منتصر لن يقيمه في الأرض إلا الذكور من أبناء منتصر، خاصــة بعد سفر مصباح تلبية لداعي الجهاد في أفغانستان وانقطاع أخباره منذ ذلك الزمن البعيد، لو كان حيًّــا لعــاد بعــد نصــرتهم علــى الشيوعيين.. ربما قُتل في صراع الإخوة المجاهدين بعد النصــر..

إن كانت كُتبت له النجاة من كل ذلك فمؤكد أنه هلك مع ضرب الأمريكان، وإن كان قد نجا من كل ذلك فمصيره السجن إلى أبد الآبدين. لا مفر من الأمانة التي يقع عليه وحده هَمَّ حملها.

يعيد الحسابات كل يوم مع كل وقفة جديدة. يحتاج خمسين.. ستين. . مائة سنة شغل.. هناك معجزات يؤمن بذلك، والمعجزات ـ كما يسمع من شيخ الزاوية السني ـ لا تقتصر على الأنبياء بل تمتد إلى الأولياء: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ".. " عبدي أطعني أجعلك عبدًا ربانيًّا تقول للشيء كن فيكون". يجتهد في أداء الصلاة في مواعيدها، ومؤكد أن الله يسجل له حسنات أكثر، لأنه ما إن يحن الموعد حتى يترك عمله ويصرخ بالأذان في جنبات المحطة، ويسرع بكل همة لحمل السجادة من مكتب الإشراف، فيجعله الله سببًا لأن يجتمع كل هؤلاء الموظفين وبعض الرواد لرفع كلمة الله وأداء الصلاة في موعدها دون تأخير.. يحافظ على تكرار التسبيحات ليل نهار، لا يشغله عنها إلا مؤخرات الملعونات الكاسيات العاريات اللي هيكونوا حطب جهنم بإذن الله.. يقوم بكل المطلوب منه وزيادة، فما هو العجيب في أن يكون نصيبه هو الآخر معجزة؟! .. لا يمكن الاعتماد على الحسنة المتقطعة من أولاد الحلال الذين يقفون لتأمله طويلاً قبل استكشاف

أمارات الغُلب على وجهه بنظارته الطبية السميكة التي توحي للوهلة الأولى أنك أمام مفكر ومثقف كبير قطع حياته للعلم والورق الذي سحب نور عينيه ولكنه هنا في جولة تنكرية لمعايشة آلام البسطاء، لكن لا يلبث الأكثر رغبة وجدية في فعل الخير، أن يطرد خيالاته الرومانسية ويعود إلى أرض الواقع تحت وقع يونيفورم الشركة الأزرق في برتقالي والذي يسرى على عمال نظافة المحطة كافة؛ تمييزًا لهم عن باقي الرواد، ويحتاج الأمر لتدقيق في مدى اتساخ اليونيفورم ودوبانه من على الأكتاف والأساور والتأكد جيدًا من وساخة يديه ووجهه، ومن أن المذلة والمسكنة مرسومتان على تقاطيع الوجه البائس، قبل أن يمد العابر المتردد يده في جيبه مستغنيًا عن نصف جنيه لفعل الخير.. لا يفقد منتصر الأمل في المعجزة ولكن يقوم بدوره في الأخذ بالأسباب، فيواصل الوقوف أمام البرواز وكل يوم يعيد الحسبة من جديد، لكن منتصر المولود بمعجزة بشارة النصر يشعر بأن هناك معجزة حدثت من أجله هو.. هي نبوءة الأب اللي كان مكشوف عنه الحجاب: " ما هو إنه ييجى في اللحظة المباركة دي يبقى ربك بيدبر التدابير".. الله يرحمك يا با.. روحه طلبت الرحمة.. يضحك ساخرًا من نفسه ومن الوهم الذى زرعه الأب بداخله، يخبط الجدار بقبضة يده، يصرخ وهو يبكى صائحًا: " كله على فاشوش". حتى الحلم الذى عايشه فى

الميدان يتبخر، ضاع مينا الذى بدأ يضعه على طريق ضاع منـــه منذ الطفولة، والأحلام العريضة تقلصت لحلم الخروج مـــن هـــذا القمقم، الذى رموه فيه دون أن يعرف سبب رميته.

ــ ١٠ ــ

"لقد أصبح التعذيب ظاهرة مستمرة واسعة النطاق فـــي مصـــر، إذ دأبت قوات الأمن والشرطة علـــى تعـــذيب المعتقلـــين أو إســـاءة معاملتهم خصوصا في أثناء التحقيقات. وفي معظم الحالات، يقـــوم المسئولون بتعذيب المعتقلين للحصول على معلومات أو لانتـــزاع اعترافات منهم، الأمر الذي يفضي أحيانا إلى الوفاة. وفي بعـــض الحالات، يتخذ المسئولون تعذيب المعتقلين أداةً للعقاب أو التخويف أو الإذلال، كما تقوم الشرطة باعتقال ذويهم وتعـــذيبهم للحصـــول على معلومات أو اعترافات مـــن أقربـــائهم أو إجبـــار أقربـــائهم المطلوبين على تسليم أنفسهم.

وإذا كان التعذيب في مصر يستخدم عادة ضد المعارضـــين السياسيين، فقد صار متفشياً كالوباء خلال السنوات الأخيرة، حيث يكابده عدد كبير من المواطنين العاديين الذين يجدون أنفسهم فـــي الحبس في أقسام الشرطة كمشتبه فيهم أو في إطار تحقيقات جنائية. ولا تحقق السلطات المصرية في الغالبية العظمى مـــن ادعـــاءات التعذيب على الرغم من أن القانون المصري والـــدولي يلزمانهـــا

بإجراء مثل هذا التحقيق. أما في الحالات القليلة التي تم فيها تحريك الدعوى القضائية ضد بعض الضباط بسبب التعذيب أو سوء المعاملة، فكثيراً ما كانت التهم هينة والعقوبات غير كافية بدرجة لا تتناسب مع الجرم. وقد أدى غياب المحاسبة العلنية والشفافية على هذا النحو إلى ترسيخ مناخ يشعر فيه الجناة بأنهم في نجوة من العقاب.

وما برحت الشرطة وأجهزة الأمن تستخدم التعذيب لقمع المعارضة السياسية؛ وخلال العقد الماضي، ذاق الأشخاص المشتبه في انتمائهم لجماعات إسلامية متشددة القسط الأكبر من هذه الأفعال. ومنذ عهد قريب تعرضت أعداد متزايدة من المعارضين العلمانيين واليساريين أيضا للتعذيب على أيدي مسئولي الشرطة والأمن. ففي مارس/آذار وأبريل/نيسان ٢٠٠٣، على سبيل المثال، قامت السلطات بتعذيب وإساءة معاملة بعض المعتقلين من المتظاهرين والأشخاص الذين زُعم أنهم نظموا مظاهرات عامة ضد الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على العراق.

وقد دأبت الشرطة المصرية على اعتقال أطفال الشوارع الذين تعتبرهم "معرضين للانحراف" أو "معرضين للخطر"؛ وأثناء

القبض عليهم، يتعرض هؤلاء الأطفال عادةً للضرب بقبضات اليد أو بالعصي. كما أخبر بعض الأطفال منظمة هيومن رايتس ووتش أن الشرطة أنزلت بهم صنوفاً من العنف الجنسي أو تغاضت عن العنف الجنسي الذي قاسوه على أيدي المعتقلين البالغين الموجودين معهم في الحبس. ويتعرض هؤلاء الأطفال لمعاملة قاسية ومهينة، تبلغ من الشدة أحياناً مستوى التعذيب.

وإلى جانب ما تقدم، لا تزال الفئات المستضعفة بسبب وصمها بفضيحة ما أو تعرضها للتهميش الاجتماعي تلقى التعذيب أو سوء المعاملة من جانب الشرطة. فهناك رجال كثيرون قبض عليهم لا لشيء سوى ممارسة السلوك الجنسي المثلي بالتراضي بينهم، أو للاشتباه في ممارستهم هذا اللون من السلوك، وأذيقوا صنوفاً من الضرب والتعذيب في حجز الشرطة. وتتضمن وسائل التعذيب الضرب بالأيدي والأقدام والأحزمة والعصي والأسلاك الكهربية، والتعليق في أوضاع ملتوية ومؤلمة مع الضرب، واستخدام الصدمات الكهربية، والتهديد بالاغتصاب والعنف الجنسي.

وقد تصاعدت حالات الوفاة أثناء الحبس من جراء التعذيب وسوء المعاملة بصورة تبعث على الانزعاج خلال العامين

الأخيرين. وقد أفادت منظمات حقوق الإنسان المصرية بحدوث ما لا يقل عن عشر وفيات من هذا النوع خلال عام ٢٠٠٢، وسبعة في عام ٢٠٠٣ ، فتح جهاز النائب العام تحقيقات جنائية في بعض هذه الحالات في أعقاب تلقيه شكاوى رسمية رفعها بعض المحامين المدافعين عن حقوق الإنسان وأقارب الضحايا؛ بيد أن أياً من هذه التحقيقات، حسب علم منظمة هيومن رايتس ووتش، لم يفضِ إلى تحريك أي دعوى جنائية أو اتخاذ أي إجراءات تأديبية ضد الجناة".

المصدر

مقطع من أحد تقارير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي حول مصر:

"يتناول أحوال الشرطة المصرية فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرون"

٢٠٠٠ ــ ٢٠١٠

UNDP

United Nations Development programme

الضوء الأحمر الخافت فى الغرفة الضيقة لم يجعله قادرًا على تمييز ملامح الذى يحقق معه، ثم إن النضارة سحبوها من على عينيه ساعة ما سحبوه من مدخل المحطة، وتعصيب عينيه حتى لا يرى الطريق.. سحبه أحد الأشخاص بعنف من ذراعه

وآخر يقوم بتغميته ثانية.. شعر بنفسه بين أيديهم يهبط درجات سلم كثيرة.. يستشعر اصطكاك باب حديدى.. ينزع أحدهم العصابة من حول عينيه ويقذف به فى غرفة لا تتعدى المترين بلا أبــواب ولا شبابيك، إلا كوة صغيرة قرب السقف.. أرضية الغرفة خرسانية لا تحوى أى فرش ولا حتى حصيرة.. الأرضية غارقة بالمياه، مــن رائحتها أدرك أنها مياه مجارٍ، وبجــوار البــاب جــردل لقضـــاء حاجته.. قاوم الجلوس وظل صامدًا بالوقوف زمنًا طويلًا وأخيــرًا استسلم لجاذبيته الأرضية وبرك على الأرض وسط المياه.. انتفض جسده بذبذبات قوية وكأنه شبك بسلك كهربا عريان.. صرخ وهب منتفضًا.. لم يسمع صدى لصوته واختفت الذبــذبات، وكأنهــا لــم تحدث.. سمع أصوات صرخات متداخلة أنثوية ورجالية.. دا أكيــد كده وكده عشان يخوفوه.. كــان يقــول ذلــك لنفســه اســتجلابًا للاطمئنان.. ربما يكون قد غفا وهذا من التهيؤات.. ردد ذلك لنفسه كذلك مطمئنًا ولم يجرؤ على الجلوس ثانية.

ــ الولد اللى اسمه مينا ده تعرفه من إمتى؟

ــ من يوم الثورة يا باشا.. ماهو أول ليلة بتنا فى الميدان، صحيت الصبح لقيته قدامى بيدينى ساندوتش أكسر بيه ريقى.

ــ يعنى عايز تفهمنى إن الصحبية دى كلها بتاعت يومين تلاتة؟

ـــ والله يا باشا اليوم اللى إدانى فيه الساندوتش الصبح ده، كان أول يوم أشوفه فيه.

ـــ ماشى يا شيخ منتصر.. عايش لى بروح أمك دور عاش الهلال مع الصليب، وبين القصرين وحسن الإمام.

لم يتمالك منتصر نفسه مع ذكر سيرة أمه، فـــانفجر فـــى المحقـــق محاولًا كبت غيظه قدر الإمكان:

ـــ بعد إذنك يا باشا بلاش سيرة أمى فى الكلام ده.. هى ماأســـأتش ليك فى حاجة الله يرحمها.. ترضى أجيب سيرة الست والدتك.

قبل أن ينهى كلمة والدتك، لا يعرف سر كل هذا الغل الذى انهمـــر عليه مع كل هذه اللكمات التى وجهت إلى وجهه، وبطنه وصدره.

كعادته اليومية يجذب منتصر طرف كم اليونيفورم ويبدأ فى التلميع، ويتطلع إلي بروازه من كل الزوايا للتأكد من دقة تلميعـــه، وبالفرطة المتدلية من جيب البنطلون يبدأ بتنظيف الإطـــار وحتـــى سيراميك الحائط. يتراجع إلى الخلف يتأمل مولوده علـــى البعـــد؛ للتأكد من تمام بريقه ولمعانه.. يعيد تدريب الحسبة فى دماغه للمرة الألف، ليصحو فجأة على دخان كثيف ذى رائحـــة نفـــاذة يغـــزو المحطة.. يتساقط الناس وهم يهرولون فزعًا نحو الخارج: " دا باينه يوم القيامة.. أعوذ بالله من غضب الله.. يســـعل .. يتخـــبط فـــى

الفارين إلى الخارج.. يخرج صوته المختنق سائلًا من بجواره ممن لا يرى معالمهم:" هو فيه إيه؟" لا أحد يجيبه فصوته المختنق بسبب الدخان الحرَّاق لا يصل أبعد من شفتيه، والكل من حوله ملهيٌّ فى حاله.. هو يوم الحشر.. كانت الدلالات باينة، على حسب قول شيخ الزاوية، فنحن نعيش فى آخر الزمن وبدأت العلامات الصغرى منذ زمن مثل ظهور الكاسيات العاريات وانتشار الزنى والربا وضياع الأمانة، وها هى الكبرى.. يجرى منتصر مع الحشود المندفعة من المحطة نحو المخارج ولا ينسى عهدته فقطة الحكومة بجمل؛ فيقبض عليها حتى لا يتعرض للمساءلة حال ضياعها.. يقف مذهولًا وهو يشاهد الميدان الذى تحول فى لحظة إلى يوم الحشر.

الدخان الكثيف الذى تزداد كثافته على سطح نظارته السميكة سيئة الصنع ضاعف من حالة الضبابية، فرأى أشباحًا تتراقص أمام عينيه..أشباحًا تجرى يسارًا وأخرى تجرى يمينًا والكثير منها يتداخل مصطدمًا، وعصيًّا وطوبًا يتناثر وصوتًا مدويًا ينطلق عبر الميدان؛ صوتًا مفزعًا متقطعًا تعقبه موجات كثيفة من هذا الدخان الحرَّاق الذى يحرق فى الصدر.. صوتًا متقطعًا كعواء الذئاب الذى كان يسمعه طفلًا فى ليل قريته.. تسمر منتصر في مكانه أعلى السلم الخارجى للمحطة، لكن الوضع لم يستمر طويلًا،

فسرعان ما ترك نفسه للتيار البشرى المتدفق.. هذا يدفعه يمينًا وذاك يدفعه يسارًا، فوجد نفسه رغمًا عنه فى وسط المعمعة.. يتشبث بالمكنسة فى يد والجاروف فى اليد الآخرى وكأنهما بطاقة هويته فى ضياعهما ضياعه.. يرفع اليد التى بها المكنسة نحو نظارته بحركة لاإرادية متكررة ويواصل مسح سطح النظارة بكم جاكت اليونيفورم حتى تتضح الصورة.. كان سر حالة عدم الخوف أنه تخيل أنه انحشر فجأة داخل مشهد سينما سريعًا ما سينتهى ويقول المخرج: " استوب". سمعها من قبل يوم تجمع مع خلايق كتير حول أحمد زكى عندما كان يصور فيلمًا داخل المحطة.. كان كيوم الحشر، لكن بمجرد ما سمع شخصًا يصرخ فى مكبر الصوت ويقول: ستوب، توقف كل شيء وعادت الحياة إلى طبيعتها: " اجرِ من هنا.. ابعدوا عن العمارة دى، دى فوقيها قناصة.. جايين من ناحية مجلس الشعب.. الحزب بيولع .. الله أكبر.. ما حدش يروح ناحية الداخلية.. القناصة بيضربوا نار ع الراس والصدر.. عبد المنعم رياض.. عبد المنعم رياض.. بلطجية الحزب جايين من هناك.. ماحدش يحط مصاب فى الإسعاف.. حجارة يا شباب.. كسروا بسرعة.. البلطجية معاهم مولوتوف.. دا بيسرقوا المتحف.. عند المتحف يا شباب.. حجارة بسرعة.. عايزين حجارة وطوب.. رجعوا البنات لورا.. مصاب يا شباب، نجدة هنا". يتلفت منتصر

فى جميع الاتجاهات يريد أن يكون جزءًا من هذا الحشد، ويريد تنفيذ شيء مما يسمع.. تداخل الصيحات والارتباك فى تحديد اتجاهات الحركة يصيبانه بالارتباك، فلم يعد يدرى أى المواقع أكثر خطرًا ليتفاداها.. إرادته الشخصية تدعوه الآن لأن يفر من هذا الكابوس ويعود إلى محطته بجوار لوحته، ولكنه فى هذه اللحظة لا يملك قراره؛ فتحرك الجموع هو الذى يقود وجهته حسبما يأخذه تيار التدفق البشرى.. من وسط الصورة الضبابية وجد يدًا غشيمة تزيحه عن الطريق وتلكزه بقوة كادت تطرحه أرضًا.. كانت اليد قابضة على شعر فتاة صغيرة لم يستطع تمييز ملامحها، كل ما ميزه كبشة الشعر فى هذه اليد الغشيمة وكوتشى الفتاة الأزرق ببنطلونها الجينز وأقدامها وكأنها فرامل عربية تستعصى على التحرك طواعية، والأيدى تضرب فى ساق صاحب اليد الغشيمة بكل شراسة.. فى لحظة خاطفة نقل الجاروف من يده اليسرى ليده اليمنى وحدد الهدف وانهال بضربة قوية برأس الجاروف على رأس ذى اليد الغشيمة، الذى بوقع مفاجأة الضربة فك قبضة يده من على شعر الفتاة وانطلق هاربًا.. بدأ منتصر يفيق ويدرك أن ما يراه حقيقة واقعة عندما شاهد هذا الصبى الصغير مهووش الشعر كشبح هلامى يجرى فى اتجاهه، يطارده شيء ما، الصبى يحدق فيه وتخترق نظرة عينيه المفزوعتين الضباب المحيط، تستنجدان

بمنتصر وتدعواه لعمل شيء لإنقاذه، وفجأة وجد الصبى يسقط على الأرض، جسد الصبى كله ينتفض كفرخة مذبوحة تصارع من أجل البقاء، العينان مغمضتان تنز منهما دموع متلألئة تضـوى وسـط الضباب، عند وصوله إلى المستشفى الميدانى بالصبى فيمـا بعـد، تأكد منتصر من أنه لم يكن بيتهيأله، ففى الضـوء الغـامر بمقـر المستشفى شاهد الدموع المتلألئة المنسالة، وقد تحجرت فى طريق انسيالها ما بين الجفن السفلى والخد.. فى طريقه إلى الصبى لـم يلتفت إلى هذا المشهد العابر الذى ترسخ فى ذهنه فيما بعد، ربمـا فلاش السيارة الخاطف هو ما أضاء له المشهد ورسخه فى الذاكرة فيما بعد، قطع مخ بيضاء مخلوطة بشعيرات الدم بجوار جمجمـة متفرتكة لفتاة ذات شعر أسود هايش، والعينان تحدقان فى الفـراغ فى حالة فزع مرعب، تخطاها سريعًا متفاديًا أن تخوض فيها قدماه متوجهًا نحو الصبى، ربما شعر أن فى هيئته بقايـا حيـاة أجـدى بالإنقاذ، يمسح زجاج النظارة بكم اليونيفـورم بعصـبية متعجلًـا استكشاف ملامح الصبى وما أصابه.. على الرغم مـن الضـباب الكثيف استطاع تمييز الثقوب جيدًا، ظهر الشاب مليئًـا بـالخروم السوداء التى تنز منها نوافير الدم.

لو كان الله قد رزقه بالولد لكان فى مثل سـنه أو أكبـر.. منتصر الذى عاش حياته يحلم بهذا الولد، رأى هذا الولد الآن أمام عينيه، لكن الواد هيروح فى شربة مية من بين إيديه.. يلقى جاروفه ومقشته.. لا يبالى بصوت طلقات الرصاص التى تكاد تخترق أذنيه ولا الدخان الذى يزداد كثافة ولا الاصطدامات المتوالية من أجساد متخبطة تبحث عن مفر، يبرك على الأرض.. يرفع يدى الصبى.. ينبطح أرضًا.. يصرخ كالمجنون فى كل الاتجاهات وكأنما يستنجد بأى من الأقدام المتسارعة فى كل الاتجاهات بحثاً عـن مخـرج:" إيديكو معايا يا جدعان.. الواد هيروح فى شربة ميـة".. يسـحب الصبى نحو كتفيه يلفحه فوق ظهـره.. يصـيح بـأعلى صـوته وبصراخ هستيرى يصارع به صوت العواء المتواصـل وطلقـات الرصاص: "مصاب.. مصاب ياعـالم يـاهوه.. دكتـور .. فـين الدكتور.. المستشفى.. الواد هيموت يا خلق هوه".. التفت حوله فى لحظات مجموعة من الشباب تحاول حمل الصبى عنه وهو يصرخ ويتشبث به كأنه أصبح قطعة من جسده، ويردد بهذيان كالمحموم: " الدكتور.. المستشفى.. الواد هيموت". يجرون ويجرى فى اتجاههم متتبعًا إشارات أصابعهم التى ترشده إلى خط السير الصـحيح، لا يهمه الآن الدخان الخانق الذى جعله يسعل بشكل متواصل.. أحـد الشباب يمسح وجه منتصر بشيء حمضى.. منتصر يزيح وجهـه

لاإراديًّا والشاب رغمًا عنه يصر على مسح أنف منتصـــر وفمــه بالخل: " دا خل يا حاج.. ما تخافش".. على مدار الطريق عشرات الأيدى الممدودة من أجساد مهرولة تتسابق فى مسح وجهه، يستطعم لسانه طعم الكوكاكولا منسابة على وجهه.. يهدأ تنفسه، لكن الدخان الملعون يحجب الصورة فلا يرى الأصـــابع المُحــدِّدة للاتجــاه إلا بالكاد: "يلعن دين أم دى حكومة.. ولاد الكلـــب الكفــرة.. الــواد هيموت يا جدعان".. يصلون إلى مسجد عمر مكرم.. يرى صورة شبحية لملامح وجه فى وسطه نظارة طبية مســتديرة العدســات، وعلى الجانبين تتدلى السماعة وترتدى البالطو الأبيض: " هـــى دى الدكتورة مش كده؟". يشعر منتصر بالاطمئنان وهو يردد الجملــة لنفسه.. تتراخى قبضته عن الصبى.. يسلمه لعشرات الأيدى التـــى تتلقفه بسرعة خاطفة وتختفى به داخل القاعة التى تحولــت إلـــى مستشفى.. يروح ويجىء فى موقعه نفسه، ينتظر إطلالة الطبيبــة التى جاءه الإلهام بأن على يديها ســتحدث المعجــزة.. لا تخـــرج الطبيبة.. يندفع كالمجنون إلى الداخل بحثًا عن الدكتورة.. يحملق مذهولًا فى صف الشباب المتراص فى أقصى الطــرف الـــداخلى للقاعة.. تخثر الدم على الوجوه والصدور واتخذ لونًا أسود أدكن.. حفر شديدة السواد موزعة على الصدور والجباه، احترقـــت معهـــا أقمشة القمصان والبلوفرات والجواكت.. لا يستطيع تمييز الصـــبى

الذى حمله وسط عشرات من سنه نفسها.. يفتش فى وسطهم محاولًا تذكر الملامح.. الشباب المتراص توحدت ملامحهم، ابتسامة رضا ملائكية، وبلورات دمعات متقطرة تحجرت على الجفــن الســفلى، انتابته رعشة وبدأ يتلو بهمهمة وبسرعة محمومة ما يحفظــه مــن قصار السور والفاتحة، الطبيبة التى كانت مشغولة فى تخييط جرح أحد المصابين تأتى إليه، وبعين دامعة تطبطب على كتفه: "البقاء لله يا حاج.. الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.. أحمد ربنــا أكرمــه بالشهادة.. وربنا رحمه لأنه لو عاش كان هيعيش بعجز كلى عمره كله".

يحدق فيها منتصر وقد انسابت رغمًا عنه دمعته العزيزة:

"اسمه أحمد؟".. لم يصله رد تأكيد، الطبيبة تركته وهرولــت فــى محاولة لإنقاذ حالة جديدة وصلت للتو.

يخرج من المستشفى الميدانى.. لم يعد يشعر بصوت العواء المتقطع ولا طلقات الرصاص المتواصــل،ولم يعــد يســعل مــن الدخان.. يمشى كالمنوم غير مبالٍ بكل ما يدور حولــه، يســترجع تقدم الصبى فى اتجاهه وكأنه يستنجد به، تأتيه الهمة وقوة عشــرة رجال.. يدور فى الميدان كالمجنون باحثًا عن أى شاب ملقى على

الأرض.. يلعن الدخان الكثيف الذى يحجب الرؤية ويلعن نظارتـــه سيئة الصنع التى لا تمكنه من الرؤية الثاقبة، ينحنى رأسه للأرض مفتشاً فى كل موضع قدم عمن يمكن أن يسقط رغمًا عنه ويـــداس تحت الأقدام، ينبطح أرضًا يرفعه على ظهره ويجرى به نحو مقر المستشفى الميدانى.. استطاع وحده أن ينقل فى تلك الليلة أكثر من ثلاثين صبيًّا.. لا يدرى من منهم عاد إلى الحياة ومن مات:"دا بقى أمر الله، بس عملت اللى عليك يا منتصر.. ربنا ينـــتقم منـــك يـــا مبارك". يصل صوت الأذان من جامع عمر مكرم.. يقف بجـــوار مدخل المترو المواجه للمجمع، ولا ينتظر عودته إلى مستقره عنـــد المدخل المواجه للمتحف.. يصرخ بالأذان فى جميع الاتجاهـــات، يصرخ ويبكى وهو يردد التكبيرات الأولى بحالة حماسية وقهـــرة نسى معهما خوفه من نزول الدمعة وتحرجه من أن يراه أحد وهو يبكى كالنساء، لم يكن يردد الأذان بطريقته الروتينية التـــى اعتـــاد عليها أمام باب المشرف لإغاظته، فقد كان وهـــو يصـــيح ب" الله أكبر" ويرددها بحرقة وأنين مشحون بالبكـــاء، وكأنـــه يســـأل الله ويستنجد به أن يأتى وينقذهم من هذا البلاء.. يـــرى الآلاف وقـــد اصطفوا للصلاة فى لمح البصر.. بدأ الدخان الخارق تخفت حدته.. يرى النار متصاعدة من ناحية الكورنيش.. تهدأ طلقات الرصاص.. يصل إلى جدار مدخل محطة المترو المواجه للمتحف.. يجلس على

الدرجة العلوية فى وضع القرفصاء مسـندًا رأسـه إلـى جـدار المدخل.. يغمض عينيه، هو فى كابوس أكيد بمجـرد أن يصـحو سيجد نفسه داخل المحطة يؤدى عمله الذى اعتاد عليه وكل شـيء كما كان من قبل، سيصحو الآن ليجد نفسه أمام بـروازه بمولـوده الأشقر يبتسم له مداعبًا:" أكيد غفّلت قدام اللوحة.. يلا قوم يا أبـو أحمد".. يرن الاسم فى أذنيه.. يسترجع ملامح الصبى ممددًا فـى القاعة فى سكون والثقوب السوداء تغطى وجهه وصدره، الصـبى تتلاشى ملامحه ويتحول وجهه لعيون واسعة باكية، تتداخل معهـا عيون الفتاة ذات الشعر الهايش بقطع المخ المتناثرة حول العينـين المذهولتين المرعوبتين من هول ما رأت لحظة الغيـاب، تتكـاثر العيون وتلتف حوله تحيط به من كل الاتجاهـات.. ينـتفض مـن رقدته، يفتح عينيه فزعًا، فيرى الميـدان وكأنـه يـوم الحشـر.. الأرضية غارقة فى بحر من المياه الدموية التـى كانـت تطلقهـا سيارات الشرطة بالأمس، وامتزجت بـدماء الشـباب الصـغار.. الميدان الذى كان بالأمس مسرحًا لمعركة حربية يـراه الآن خليـة نحل، يخلو من أى عناصر أمنية والشباب بكـل همـة يحـاولون إصلاح ما أفسدته معركة الأمس؛ منهم من هو معصوب العـين أو مجبور اليد أو الساق، ومنهم من يعرج ويتحنجل فى مشيته، لكـن المشترك بينهم جميعًا هو حالة الهمة والنشاط والفرحة المكسـورة

المختلطة بمرارة فقد بعض من الأحبة الذين لا يعرفون لهم اسمًا ولا عنوانًا وكان اللقاء الأول والأخير معهم هنا فى الميدان.

فى رقدته أعلى سلالم المحطة وهو يزيح البطانية عن جسده. هذه البطانية التى قدمها له أحد الشباب بعد فجر اليوم الأول عندما رأى كمشته بجدار المحطة، ينتفض جسده من شدة البرودة.. وجد يدًا تمتد ناحيته بساندوتش: " أكيد إنت على لحم بطنك من إمبارح.. فك ريقك بده". شعر بقشعريرة تسرى فى جسده وهو يرى دقة الصليب.. تطلع إلى الوجه الباسم للفتى الصغير الأسمر ذى النظارة الطبية والوجه النحيل والشعر الحليق.. تناول منه الساندوتش.. كان بالفعل يقرصه الجوع فالتهمه على دفعتين: " اسمى مينا.. مينا رءوف تادرس" الشاب بعد أن جلس بجواره، يحاول منتصر أن يكون ودودًا لإظهار الامتنان: "طبعًا يا أستاذ مينا هتعدى على خير.. ربك بيقول فى القرآن البلد دا محفوظ ليوم الدين". يبتسم مينا، يشعر منتصر أنه لخبط فى الكلام، فيردد فى سره: "وده ماله ومال القرآن؟"، فيحاول إصلاح خطئه بمد يده نحو مينا للمصافحة:" أنى منتصر.. منتصر عبد الفتاح مصباح الزينى.. متشكر أوى ع الساندوتش.. الصراحة جه فى وقته".

صحف القاهرة الصادرة صباح السبت

١٩ فبراير ٢٠١١ :

الأهرام:

ــ الشعب يريد تطهير البلاد.

ــ المصريون يحتفلون بالانتصار ويصرون على مطالب الثورة.

ــ القرضاوى يدعو إلى الحفاظ على وحدة المصريين ويحذر من سرقة الثورة.

ــ أصعب ليلة فى حياة ٤ مسئولين سابقين.

الأخبار:

ــ حشود مليونية فى ميدان التحرير.

ــ بدء الحساب العسير لكل المتهمين بالفساد.

ــ القرضاوى فى ميدان التحرير: الثورة لا يمكن أن تؤخر مصر اقتصاديًا.

ــ خسائر بالمليارات فاتورة اعتصامات واضرابات الموظفين والعمال.

الجمهورية:

ـ ملحمة شعبية رائعة فى جمعة النصر.. الملايين هتفوا لمصر فى جمعة النصر.

ـ العادلى محبوس بجهة سيادية.. وعز والمغربى وجرانة بسجن المزرعة.

المصرى اليوم:

ـ ملايين الثورة تواجه مليارات الفساد فى ميدان التحرير.

ـ احتفالات حاشدة فى أنحاء البلاد وصلاة الغائب على الشهداء.

ـ معارك بالرصاص والمولوتوف والسيوف فى الاحتجاجات الفئوية بالمحافظات.

الوفد:

ـ مصر تحتفل بالثورة و" القرضاوى" يؤم الملايين فى صلاة الجمعة بميدان التحرير.

ـ سيناريو محاكمة حبيب العادلى الذى قتل ٣٦٥ شابًا من الثوار بميدان التحرير.

ـ بنات الأحياء الراقية بالمقشة والجاروف فى حملة تنظيف الشوارع.

الشروق:

ـــ مليونية " جمعة النصر" تطلب الإطاحة ببقايا النظام.

ـــ القرضاوى: اصبروا حتى تحقق القوات المسلحة مطالبكم.

يقف منتصر أمام مدخل سلالم محطــة المتــرو المواجــه للمتحف، ينظر إلى حفيظة ثم إلى المدخل، عينيه مليانة كلام، نفسه يحكى لحفيظة عن حكايته مع المدخل وعن كمشـــته معظـــم أيـــام الثورة، خايف يخش فى الغميق لتجيله رصاصة كده ولا كده، لكن عند الجد نسى نفسه ودخل المعمعة، بس برضه مش زى العيـــال اللى كانت فاتحة صدرها للرصاص ولا هاممها، كان خوفه بيغلبه، بتجيله نوبات شجاعة وقتية بعديها يفوق ويرجع لكمشته فى مدخل المحطة.

عايز يحكى لها عن مينا اللى فتح عينيه على الدنيا، ابـــن امبارح المتعلم المتنور اللى خد بإيد ابن الخمسة والخمســين كإنـــه طفل بيعلمه أبجديات الطريق وفتح له سكة العلام تانى بعد ماكـــان خلاص فقد الأمل وبيستعد يخرج من الدنيا زى ما دخل، والغريب إن ابن امبارح هو اللى راح فى شربة مية وابن الخمسة والخمسين

هو اللى يفضل عايش يتحسر على الحلم اللى كان خلاص قــرَّب يبقى حقيقة وفجأة ضاع، يا ترى الست والدته، الست تريزا عاملة إيه دلوقتى؟ مين هيراعيها ويناولها الدوا فى مواعيده؟ حتة العيــل اللى كانت متعكزة عليه فى أواخر أيامها راح فى شربة مية. ربنــا يصبَّرها: " آه يا بلد بنت وسخة، بتاكلى فى ولادك"، رددها منتصر فى سره، وشفتاه تهمهمان بكلمات غير مفهومة.

عايز يحكى لها عن قهرته على أحمد اللى راح فى شــربة مية، وإنه كان نفسه يعرف طريق أهله؛ عشان يعزيهم وكأنه يعرف أحمد من عُمْر..

عايز يحكى لها عن مولوده المتربع وسط البرواز.. نفســه يحكى لحفيظة سره مع المشرف ابن الوسخة وسبب طرده الحقيقى من الشغل، هو قال لها نفسه اتسدت.. طبعًا يخاف يسقط من نظــر مراته لو حكى لها عن إن حد اتجرأ وهانه.. حفيظة كــان نفســها تسأل وتعرف ليه ساب الوظيفة اللى كانت ساترة البيت، بس هــى عارفاه، مفيش حد يقدر يغصبه على حاجة، وطالما ما تكلمش مــن نفسه يبقى مهما عملت مش هيتكلم.

ــ تعالى يا حفيظة ننزل من هنا ونطلع من سلم الناحيــة التانيــة، هنبقى قدام المحطة طوالى.

كان بيتلكك عايز يطل على مولوده الأشقر المتربع وســط البرواز.. البرواز كما هو فى موضعه، فى نظرته العابرة لاحــظ منتصر اتساخ الإطار وغيمة الزجاج وانطفاء جــزء مــن أنــوار البرواز.. كان حريصًا على ألا تطول النظرة؛ كى لا يلفت انتبــاه حفيظة.. لن تفهم وهو لن يجرؤ على أن يحكى لها الحكاية، يقــول لها إيه؟ يقول لها إن كل اللى بيترجاه م الدنيا صورة حتــة عيــل ملزوقة ع الحيط، وحتى لو الصورة بقت واد بحق وحقيق، عملت له إيه يا منتصر؟ هتعيشه فى حواديت زى اللى أبوك عيشك فيها؟ بعديها تسيبه للفقر والغُلب وقلة الحيلة، ولا تجيبه ويروح منك فــى شربة مية زى أحمد ومينا وتموت بحسرته؟ تتوقف أقدامه، تتثبــت النظرة على غرفة المشرف، تعاوده سخونة اللحظة وكأنها حــدثت للتو، والله لو شافه ليطبق فى زمارة رقبته وياكله بإيديه وسنانه.

ما إن نطق المشرف بكلمة فوضى حتى وجد منتصر نفسه يلقى بالمكنسة بعيدًا ويقبض بكلتا يديه علــى الجــاروف ويرفعــه لأعلى، ثم ينهال به على رأس المشرف الذى يفر مــذهولًا غيــر

مصدق لما يحدث، ومنتصر يجرى وراءه مطاردًا: " فوضى يا ابن الوسخة يا خول.. يلعن ميتين أبو أمك على أبو اللى رباك وعلمك وإداك شهادة ما تستاهلهاش، والله لأجيب أجلك النهاردة.. ماهى ضايعة، ضايعة يا ابن الشرموطة"، والمشرف يصرخ وهو يجرى مستنجدًا، يهذى كالمجنون وهو يحدث من حوله من عمال المحطة وموظفيها المنهمكين فى تجهيز المحطة للافتتاح الجمعة القادمة، دون تركيز على شخص بعينه: "خليكو شاهدين.. تعدى على موظف حكومى فى أثناء أدائه عمله.. والله لألبسك جناية يا ابن المجانين.. البوليس.. حد ينادى البوليس.. خرجوه بره.. إنت مرفود واللهِ لخليك تلحس الجزم يا ابن الجزمة يا جعِر يا فلاح".

قبل أن يخرج منتصر بعد رفده من المحطة، وقف يلقى نظرة وداع على مولوده الأشقر المتربع فى منتصف البرواز.. تمسح عيناه الميدان.. الميدان وكأنه ساحة حرب تتناثر فى أرجائه ثانية قطع الحجارة ومخلفات الأخشاب.. بقايا خيام محترقة.. تلطيعات دماء على الأرصفة والجدران.. رسوم ع الحيطان يحاول الجنود مسحها بالدهانات.. دخان يتصاعد من بعض أكوام تحوى أوراقًا وملابس وقطع خيام فى الأركان.. خراطيم مياه المطافى تحيل الميدان إلى بركة مياه.. على الرغم من ضوء النهار شعر

وكأن سحابة كالحة ترقد على صدر الميدان تحــوّل نهــاره إلــى غيامة.. تدمع عيناه.. اختفى كل البشرمن الميدان إلا مــن هــؤلاء المتلفحين من ساسهم لراســهم فــى الســواد بقبعــاتهم المعدنيــة وعصيهم.. يقرر العودة إلى البيت سيرًا على الأقــدام.. لا يخبــر حفيظة بما حدث، هى تفهم وحدها عندما تراه ينزل تحت الســرير ليستخرج عِدة الشغل.. لا ينتظر منها سؤالًا، يحدثها وكأنه يحــدث نفسه وهو يتطلع للعِدة: " طول ما الراجل مننا بصــحته؛ يجيــب القرش من عين العفريت".

يعود إلى موقعه على رصيف محطة نصر الدين، يجلــس بين جموع الرجال المصطفين على الرصــيف.. لســه بصــحته وشباب؛ فهناك من يجلس بجواره وقد تخطــى الســتين.. تتوقــف السيارات.. يتطلع أصحاب السيارات إليهم، يتوقــف مــن عنــده مصلحة.. يفتش فيهم.. ينتقى الأكثر شبابًا.. يتــأخر دوره كثيــرًا، لكنها عادة بتجبر وهناك من يأخذه.. شيل رملة.. هدد.. تكســير.. مناول ورا عامل بناء أو مبلط:" الله يرحمك يا بــا.. لا عــلام ولا صنعة".. الله يرحمك يا مينا، مش كنت تستنى شوية لما تكمل معايا الطريق.. دا انت قلت شهرين تلاتة.. خطفوك منى بدرى بــدرى، ولا فيه العيل اللى اتعكز عليه زى ما أبويا أتعكز عليَّه.. يســترجع

بروازه بمولوده الأشقر المتربع فى وسطه.. يعاود الحسبة بمقاييس رزقه الجديد، يهمس لنفسه: "دى أرزاق وربك علام الغيوب.. مش جايز".. يقضى وقت الانتظار حتى يلتقطه زبون فى إعادة الحسبة مع نفسه.. هناك معجزات هو يثق فى ذلك، ربما تكون من نصيبه معجزة.. لا ييأس أبدًا من إمكانية مجيء المولود الأشقر المتربع فى منتصف البرواز.. لا ينقطع عن التسبيحات التى تُجرى الرزق وتفك الكرب، يواظب على صلاة الجماعة؛ فالموضوع لا يكلفه هنا إلا تعدية الشارع والصلاة بمسجد نصر الدين، لا تنغصه إلا المؤخرات الأنثوية التى عادت تشاغله طوال جلسته فى انتظار وصول الرزق المكتوب له.. يواظب كعادته على نشرة تسعة يتصيد أى أخبار للميدان، آه، لو حدثت المعجزة ثانية!

ع المغرب اتفض المولد وكل حى رجع لبيته، حفيظة شبطت فى عَلَم زيها زى العيال الصغيرين، عاود حسبة ما تبقى فى جيبه من جنيهات قليلة واشترى لها علمًا صغيرًا بجوز جنيهات، وجابوا كوزين درة فضلوا ياكلوهم وهما ماشيين.. كان حاسس إنه مخنوق وعايز يمشى شوية، وصلوا لمحطة الأوبرا.. حس إن حفيظة راخرة ليها كيف فى المشى، وصلوا للطالبية كل منهم فى دنيته، بالعدد ماتكلموش كلمتين على بعض، هو كالعادة سابق

بخطوة وهى ماشية تجر رجليها وراه.. لكن كان كل شويه بيتلفت وراه وكان بيراقبها بنص عين.. هى كانت تتلفت حواليهــا ولمــا تلاحظ إن ما حدش واخد باله تقعــد تشــوح بــالعلم زى العيــال الصغيرة.. على ناصية الطالبية قالت له: نكمل فســحة النهــاردة وتأكلنى كشرى. عاود حسبة الجنيهات القليلة المتبقية خاصة بعــد توفير فلوس المواصلات، وجد معه ما يكفــى عزومــة الكشــرى وشراء جرنان الأهرام على بيات للواد عبد الفتاح اللى هيبتدى معاه من بكرة إكمال تعليمه قراءة الجرنان، وكمان ما يكفيه لمواصلات الغد. دخل بيها محل الكشرى وهو يتأبط الجرنان مزهوًا به. بعــد خروجه من محل الكشرى يتحسس جيبه، يتأكد من أن الجيب مــا زال يحوى ثمن أجرة العربة الصندوق المغلقة التى ستخرجه صباح الغد لناصية الطالبية وثمن تذكرة الأوتوبيس اللى هتوصله لمحطــة نصر الدين، فالعِدة ثقيلة ولا يستطيع السير بها كل هذا المشــوار، أما ما بعد وصوله إلى المحطة فله رب اسمه الكريم.

صدر للمؤلف :

ــ بشارة الأربعين.. "رواية" عن دار ميريت للنشر عام ٢٠٠٦
ــ فارس كور.. "رواية "عن الدار للنشر والتوزيع عام ٢٠١٠
ــ حبل الوريد.. "رواية" عن الدار للنشر والتوزيع ط١ ابريل عام ٢٠١٤
ــ حبل الوريد.. ....ط ٢ يونيو عام ٢٠١٤

تنـــويه:

"وسط طوفان من الكتب الإبداعية والتوثيقية وأرشـــيف الصـــحف المصرية " الأهرام والأخبـــار والجمهوريـــة والمصـــرى اليـــوم والشروق"، وأرشيف خطب الزعيم جمال عبد الناصـــر والـــرئيس السادات، كذلك مجموعة الأفلام الوثائقية الاحترافية وأفلام الهـــواة التى وثقت للحدث، والتى ساهمت فى بلورة رؤيتى لهـــذا الحـــدث العظيم ــ ثورة الخامس والعشرين من يناير، أخص بالذكر الأعمال التالية والترتيب أبجدى":

ــ إبراهيم عبد المجيد .. أيام التحرير.

ــ د. كمال مغيث.. هتافات الثورة المصرية.

ــ مكاوى سعيد.. كراسة التحرير.

ــ مريم وحيد.. الجسد والسياسة.